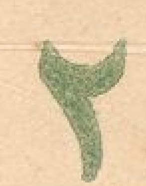


اليقظة
سلسلة العمومية والبابيروس
٢

من النقد الفرنسي



محمد روحي فيصل

من النقد الفرنسي

الثقافة

سلسلة العمومية والبابيروس

٢

من النقد الفرنسي

محمد روحي فيصل

الى

Madame Bellan

أرفع هذه الفصول التحليلية الست التي
لخصتها على مهل وفرط بصر ، ولا اقول عربتها
بالنص ، ثم عرضتها في بعض صحف البلدان
العربية ، فكان لها في الاسماع وتحت الاقلام
صورة حلوة قوية كصورة هذه السيدة الفاضلة
التي درست على فمها ؛ اول ما درست ايام
الصغر ، ألفباء الأدب والبيان .

محمد روحي فيصل

بول فاليري

عضو الاكاديمية الفرنسية

« . . . أننسى بول فاليري وهو حي يخطو على تراب فرنسا بشاعريته الفذة وفنه العجيب ؟ ههنا ياسادتي عاطفة قوية حادة ، تحمل دنيا من الخواطر والآراء، وتقتات من كل جميل فاتن يشاهده الشاعر الكبير او يقع عليه بحسه الموفق وبديهته المرتجلة . ههنا اسلوب في الشعر لايعرف ذوو البصر بالقريض ادق منه ولا اعمق ولا اروع . ههنا حياة جليلة خصبة عبقرية ما تفتأ تدور على نفسها وتكتمل في ذاتها حتى تصير الى مثل هندسة ذرة البلور وذرة الثلج » .

آبل بونار

في محاضرته عن « الحياة والشعر »

-١-

في الشعر

سيداتي ، سادتي

حديثنا الليلة اليكم في الشعر ! والموضوع دائر كما تعلمون الآن في كثير من الصحف والمجالس . ولعل الغرابة ان ينال الشعر الاهتمام ، وتبذل للفن المجهود ، في زمن مادي اخذته الواقعية المحسوسة ، وطغت عليه الوضعية العلمية ، وسادت فيه الفكرة الاقتصادية !

— ١ —

للشعر في الافهام معنيان : أولها انه مجموعة العواطف والانفعالات التي تهيجها في نفوسنا احداث الزمن ، ومجالي الطبيعة ، ومعاني الوجود ، والوان الحياة . فنقول : منظر شعري وظرف شعري . وثانيها انه فن قائم وصناعة عجيبة ، يتناول الاهواء المشبوبة بالتنسيق والتأليف والجلاء ثم يبرزها في لغة جميلة تطرب لها الاذن ويهتز منها القلب ! وبين المعنيين صلة شديدة وتباين كتباين الرائحة التي تضوع من الزهر ،

والرائحة التي تضوع من الكيمياء . ومهما يكن من شيء ، فالناس لا يزالون في لبس من المعنيين ، وحيرة في الشعر والشعور . وكان من اثر هذا أن طائفة من الاحكام والنظريات والمؤلفات قد فسدت وغمضت لاطلاق الكلمة الواحدة على معنيين شتيتين ، وان اتصلت أسبابهما اتصالاً وثيقاً !

فالشمس الغاربة ، والغابة الوارفة ، والقمر الناعم ، والبحر العظيم — هذه وغيرها تبعث في الناس حين يستشرفون لها انفعالات وجدانية تختلف في الشدة والمدة والنقاوة والاثر . وقد تكون ازمة الهوى ، وفاجعة الموت ، ونازلة الفقر اسباباً مباشرة لاضطراب نفسي عميق او خفيف يلون الشعور ، ويشتت المعاش ، ويبدل المثل الأعلى ! ولكن هذه العواطف الانسانية المعروفة تغاير كل التغاير ما نسميه « العاطفة الشعرية » . ولعل بيان اوجه التغاير والاختلاف لا يخلو من عنت ومشقة ، لانهما في الواقع متحدان اتحاداً شديداً ما ينفصل احدهما عن الآخر او يبرز له ويسمو عليه . فالعاطفة الشعرية تتصل ابداً بالحب والالم والخوف والغضب وما الى هذا من مشاعر النفس وأهواء القلب .

وانما العاطفة الشعرية عندي احساس قوي بحياة غريبة ، وشعور واضح بعالم جديد جرده المبين من نفسه لنفسه ، ثم قوّم أشياءه واحداثه وأشخاصه بالميزان الذي له خاصة ، وخلع على ما فيه قيماً حديثة قـد تتفق وقد لا تتفق مع القيم المألوفة التي تواضع الناس عليها في حياتهم الدارجة ! ولئن تشابهت أشياؤه بالاشياء ، وتمارفت الاحياء بالاحياء ، فلقد يشملها جميعاً قانون النفس العام ، وتصطبغ كلها بالشعور الانساني . تتجاذب تلك الاشياء والاحداث والاشخاص ، وتتنادى وتطرد لغاية عملها في دقة ونظام . والاولى ان نقول ان الاشياء والاحداث والاشخاص تؤلف في العالم الجديد لحناً موسيقياً منسجماً لا ضجة فيه ولا نشوز ، يتملاه الشـاعر ويستوحيه ويخضع له . . . دنيا رحبة هادئة جميلة هي ملك المبين لانها في نفسه ولانها من خلقه ! ولعل هذا العالم الشعري يماثل من وجوه عديدة عالم الرؤى والاحلام التي تضطرب في خيال المرء ، وتطيف في رأسه الغافي . . .

ولقد احب ان اشـير هنا ، وقد انحدرت الاحلام مع الحديث ، الى ان جماعة الابتداعيين « الرومانتيك » وادباء

العصر الحاضر قد خلطوا بين الشعر والرؤيا ، ووحدوا معناهما ! نعم ، قد تكون الرؤى والاحلام صوراً شعرية خالصة ، ولكنها صور بارزة مؤلفة من عمل المصادفة والاتفاق .

ان عالم الرؤى عالم غريب قد ملأ ساحته الشعور المبهم ، وانفرط فيه عقد المنطق المحترم ، وهب عليه ادراك غير ادراكنا ، وتفكير غير تفكيرنا ! فهو عالم مغلق تبرز الاشياء فيه على غير حقيقتها ولونها المعهود ، وهي انما تصطبغ بأهوائنا المكظومة ورغائبنا الكامنة ومثلنا المرجوة . والعاطفة الشعرية حالة نفسية كهذه الحال الطليقة تظهر على غير انتظام ، وتعمل في غير استقرار ، وتضمحل من غير انذار ! لقد تقوم في أنفسنا بالمصادفة ، وتختفي عن اعيننا بالمصادفة ! وعجيب — ياسادتي — أثر المصادفة العابثة في ظهورها وفنائها !

« تصفيق »

— ٢ —

يكر الزمان مسرعاً ولا يؤوب ، وتتجدد الحياة مشرقة ولاتتشابه ، وتزول الصور ماضيةً بدون أثر ! والله القادر

الحكيم انما تفرد بالطي والنشر ، والمحو والابداع ، ثم اودع في الحياة معنى الموت ، وفي الجذوة قوة الركود ، وفي الخلق سر الاعجاز !! ولكن الشاعر المبين لن يرضى عن اللحظة الحية التي تطوى الا اذا سجلها على القرطاس ، وأمد في عمرها ، وأثبتها على الدهر ، كأنما يعارض انحدار الأشياء الى صندوق العدم ، او يغالب عبث الليالي وتطور الوجود ، فهو يقف بالذاهب الآفل وقفة طويلة ممعنة فيقيد خواطره ، ويعلن احاسيسه ، ويحيي حبه ، ثم ينتزع من الحياة قطعاً يقذفها في اطار خالد جميل الى العصور التي تليه ، والاجيال التي تضطرب بعده على الارض ! كذلك استطاع ان يستمتع بالعاطفة الشعرية الطليقة وان يستحضرها في نفسه كلما أراد ، كما تستحضر الرؤى بالتنويم . والفنون كلها تقلب العرض الزائل الى حال دائم ، والعمل الفني انما هو الآلة الحسية لهذا التوليد العجيب والخلق الموفق . فالموسيقى والنحت والادب والتصوير طرائق مختلفة للتمثيل والتعبير اقتضتها كثرة الحواس الظاهرة ، واشتباك النفس الباطنة ، وغموض المدنية الحاضرة ...

التمس الشاعر طائفة من السبل الملتوية لاستحضار العاطفة الشعرية ، ورياضتها على الفن . ولعل أقدم السبل المشروعة ، واعمقها اثراً ، وأشدها تركيباً هي اللغة . ولكن اللغة بطبيعتها المادية وسلطانها الواهي واستخدامها العملي أجهدت الشاعر أيما اجهاد ، وهو الذي يقوّم بها الشعر ويؤلف منها الجرس !

أرجو أن اظفر — ايها السادة — بعرض ما يكابد الشاعر من آلام ، ويبذل من جهود ، ويغالب من مصاعب

ان اللغة كما ذكرت أداة قديمة يخلص الناس بها الى حاجات العيش ومطالب الجسد ، فهي على هذا أداة سمجة خلقتها المصلحة ، وشوهتها الظروف ، وأخضعتها الشهوات . فقيم الكلمات ، ومدلول الالفاظ ، وقواعد التركيب ، وفن الكتابة ، ومخارج النطق ، انما هي ألهية من الألاهي الطريفة نعبث بها على ماتقتضيه المآرب وترتضيه الاهواء . ولقد نجل مقررات المجمع الادبي ، ونقدر عمل الطباعة والصحافة في تحديد معنى اللفظ ، وكف شرة الفرد ، ولكن خصائص اللغة من حيث قدرتها على ابداع الجرس الموسيقي وتشقق

المعنى الواحد فيها عن كثير من المعاني المدروجة ، لم تجد — وا أسفاه — من يرد عنها عادية النزوات وعرف الاوضاع. فقد ننطق بالحرف ونرسل الكلمة كما تقوى حناجرنا ، وتنفرج شفاهنا ، وتتسع ثقافتنا ، وتزخر نفوسنا ، فنحرف الكلم عن مواضعه ، وندخل الفوضى على المفهوم ، وننشر الشك في قيمة اللغة !

والحق ان اللغة لو انها لم تصلح لغايات العيش ، ولم تشتمل على معنى السعادة ، لما كانت تكون وسيلة من وسائل الشعر والفن ، ومطلباً من مطالب الدقة والتعبير .

هكذا ، ياسادتي ، شاء الحظ العاثر ان يستخدم الشاعر أداة حسية عملية ليحقق بها فناً أبى الا أن يثور على المعاش ، ويشرف على العمل ، ويسمو على المادة . . !!

اما الموسيقي السعيد — والهفي عليه — فقد يشرع فيما اختص له وتوفر عليه ، ووسيلته جاهزة سامية مستقلة ، لا يشركه فيها أحد من الناس ، ولا تقدني الى مالم تخلق له ، وهو انما يعمد الى مادة قد صهرتها العصور ، وهيأتها الطبيعة ، وحددتها الغاية ! لشد ما يشبه الموسيقي الصناع

نحلة ولوداً جاءت الفرخ فوجدت الخلية قائمة على احسن ما تقوم البيوت ، مقسمة على ادق ما تقسم الغرف ، فولدت مرتاحة هانئة ثم اهتمت للعسل وحده تجمعه من هنا ومن هناك ! كذلك رجل الالحان يؤلف فنه من غير جهد ، ويسلك سبيله بهجاً طروباً ، كأنما اللحن قد انسجم وبرز واكتمل قبل ان تمسه يد الموسيقي الفنان !

ذلك بأننا نعيش بالسمع في عالم الاصوات ، ونحيا بالاذن حين تعمى العين ويعيا اللسان . والاذن تدرك بطبيعتها ان الاصوات المتعالية انما تتألف من وحدات بسيطة بالغة البساطة ، صغيرة بالغة الصغر ، حتى كأنها لا تقاس بشيء ولا تلمح لوحدها . وهذه الواحدات قد تنسجم لمسافات محدودة ، وتطرد بنسب معينة ، فتكون الصوت الموسيقي ، وقد تضطرب بغير نظام ، وتسير على غير منهاج ، فتكون الضجة الراجفة . فالاذن تعلم بالغريزة مكان الوحدة من الجرس ، وتتذوق بالفطرة نور الجمال في الهمس ، وتدرك ان الفرق بين النغم والضجة كالفرق بين النقاوة والكدورة او بين النظام والفوضى . ثم جاء العلم الطبيعي فأتم ادراك الغريزة وفطنة الاذن ، وهو

العلم القديم الدقيق ، فقاس النسب ، واخترع الآلات ، وأبدع من الالحان ما لا تستطيعه دنيا الطبيعة بذاتها ...

وللموسيقى عمل السحر في النفس ، تخلق جواً خاصاً بها لست ادري ما طبيعته ، وانما اعلم انه جو هادئ جميل يتخدر فيه الشعور ، وتطير العاطفة ، ويحلو التخيل ، وتبرز الاحلام ! ولو ان لحناً شجياً انبعث خافتاً من كان في هذه القاعة الرحبة التي يهزها صوتي المضطرب المتعاظم لرأيتكم فجأة تميلون الرؤوس وترهفون الآذان الى مصدر اللحن ، تتحسسونه وتتذوقونه وتعدونه في انفسكم وانتم لا تشعرون ! أفلا فطنتم الى الاشعة القوية التي سطعت عليكم من شعاع لطيف ، والى الدنيا الحالمة التي طغت عليكم اثر جرس خفيف ؟ ولقد يعطس شخص او يقع كرسي او يفتح باب ، فتستيقظ انفسكم الحالمة ، وكأنما صار لها ما يصير للزجاج اذا كسر ، او الحبل اذا تصرم .

تلكم الالحان الهادئة ، والآذان الواعية ، تعين الموسيقي على احياء النفوس من غير تعب . اما لغة الشاعر فكما علمتم الفاظ جامدة مبهمة ، تخاطب الاذن والنفس على

السواء ، وتثير فيها ألواناً متداخلة من العواطف والميول.
وهنا موضع الشذوذ ، فلست أعرف أثراً متداولاً أفرط
في الغموض والاشتباك كاللغة . ولقد تقول كلاماً صحيحاً
يقبله العقل ، ولكنه لا يهز الاذن ولا يطرب القلب ،
او تقول كلاماً منسجماً جميلاً ولكنه خلو من التفكير
والمعاني ! وليس أدل على اشتباك اللغة من نشأة هذه العلوم
المختلفة التي تتظاهر كلها على شرحها وتفسيرها ، فثمّ علم
النقد والادب والبلاغة والمنطق والاشتقاق والنحو تشترك
جميعها في الكشف عما يحجب الالفاظ من الابهام والتعقيد .
ولن يستطيع المبين ان يتجاهل هذه العلوم او يثور على
سلطانها او يكتفي بالتوقيع على الاذن دون النفوذ
الى النفس !

ولكن الكلام كلامان : منثور ومنظوم، والنثر والنظم
مظهران قويان للغة ، وبينهما حدود على وضوحها متداخلة
متشابكة ...

« تصفيق شديد »

-٣-

اذكر اني كنت احاضر مرة في هذا المعنى طائفة من الاجانب ، فلما بلغت هذا الموضع من الحديث اذا بأحد المستمعين يتلو علي رسالة طريفة بعث بها الكاتب « راكان » الى صديقه « شابلان » يقول فيها :

« . . . وانت تستطيع ان تنعت نثري بما شئت من الظرف والكياسة والبساطة ، فلقد اعتزمت على الا احيد عن نصائح استاذي الكبير « مالرب » ولا التزم ما يلتزمه غيري من الوزن والايقاع والجرس ، وحسبي الوضوح من تاج أزين به نسج الفاظي ولفتات ذهني ! كان مالرب الذكي يشبه النثر بالمشي ، ويقرن الشعر بالرقص ، ويقول ان ما نفعله مرغمين يستحق التسامح والاعتدال ثم لا بد فيه من التجاوز والاهمال ، وأما ما نعمله باختيارنا ورغبتنا فمن السخرية ان يكون المرء فيه ضعيفاً او وسطاً ، فالاعرج مضطر الى المشي اضطراراً ، ولكنه متحذلق سخيف لو راح يرقص على الفالس والخطوات الخمس »

ان تشبيه النثر بالمشي والشعر بالرقص تشبيه خصب جميل

لا أعرف أصح منه ولا ادق ولا اشمل ! فالمشي كالنثر يقصد صاحبه ان ينال غاية ماثلة ، ويحقق فكرة مرسومة ، فهو يرجو شيئاً ، ومن اجله يمشي ، ولعله لم يدب برجليه أو يضرب في الارض الا لان الباعث على المشي قد تحرك فيه وألح عليه . وظروف المشي — اعني طبيعة الغاية وحالة البدن وجغرافية الارض واشتداد الرغبة — هي التي تحدد سرعته وتعين وجهته . فالمشي على هذا واسطة قائمة تزول متى برز وجه الغاية ، او هو فعل متجدد سوف ينطوي بعد حين . اما الرقص فهو هو الواسطة والغاية ، ليس يفنى ولا يسير على غير هدى ، ولئن قصد به شيء فهو الرياضة على الفن الجميل ، والشعور بالحياة السعيدة ، والاستمتاع بالمثل الاعلى ! على ان الرقص يستخدم نفس الارجل والاعضاء والاعصاب التي يستخدمها المشي . وكذلك الشعر أداته نفس الكلمات والصور والمعاني التي يقوم بها النثر عند البيان

وانما يمتاز الشعر من النثر بأنه يتناول الالفاظ على نحو من التركيب والتوجيه يخالف ما يتناول منها النثر في اغلب

الاحيان ، فنحن نعجب بالكناية والمجاز في الشعر أشد العجب ، بل نحن لا نعجب بالشعر الا اذا كان كله او جله كناية ومجازاً . اما القول بوحدة الشعر والنثر فهو قول خاطئ لم يقره النقد الصحيح ، ولم يسغه الذوق الحديث ، ولعل ما يجوز في احدهما لا يجوز في الآخر على اوجز تعبير

والمشي كالنثر يسلك صاحبه أخصر الطرق واقومها واقلها عوجاً ومنعطفات ليصل الى بغيته التي يرجوها دون تريث ولا تذبذب . ولكنّ الرقص بخلاف ذلك لا يحلو الا اذ اكثر القائم به من الروحات والغدوات ، وافرط في اللف والدوران ، وأمعن في الجيئة والذهوب . ولو سمح لنا الرياضيون لقلنا ان الخط المستقيم سبيل الماشي والناثر ، والخط المنحرف سبيل الراقص والشاعر !

تلك السماء تسح مطراً — هكذا يعبر الناثر في نزول المطر الشديد ، وهكذا علمنا منذ الطفولة على الكلام . اما الشاعر فلن يبين كما يبين الناثر ويتكلم الناس ، وانما يكسو الحقيقة العارية ، ويزين الصورة الواقعة ، ويعرض الحس في اطار رائع يبهر البصر ويعجب البصيرة . وما ينبغي للشاعر الفنان

ان يقول « تلك السماء تسح مطراً » حتى نحمل المظلة ونتقي البلل ، لان « تلك السماء تسح مطراً » قاعدة الكاتب الناثر ينشىء فيوجز ويصرح ثم لا يجمل ولا يبالغ

يمشي الرجل متثاقلاً او مسرعاً الى غايته ، فما يكاد يبلغها حتى يقف قائماً لا يسعى ، كأنما التثاقل والاسراع كانا من أثر الحاجة والالحاح ، فالرجل يكف عن المشي لان علة المشي قد زالت . ولان غاية السعي قد برزت ! وهذا الاعرج الضعيف الذي ذكره « مالرب » في حديثه انما يجلس مستوياً على مقعده كما يجلس الراكض العاني بعد طول اللهث والتعب . كذلك لغة النثر تضطرب وتموت في الذهن متى عرف معناها واستبانت غايتها . فهذه محاضرتي انما القيها على مسامعكم لتفهموا عني ما احب وتعتقدوا بالذي اعتقد ، فانا اقول الآن نثراً ، ومتى انتهيت من الكلام وارفض جمعكم الحافل ، طارت الالفاظ سريعاً من ذاكرتكم ، وبقي الاثر وحده منطبعاً في اذهانكم ، كأنما اقول ما اقول من الكلام المنثور لادفنه بيدي واذيبه متعمداً ، ولقد يتفاعل هذا الاثر الحديث مع غيره من الآثار السالفة كما تتفاعل فيما بينها عناصر الكيمياء . ومهما تكن نتيجة التفاعل

الفكري ، فالالفاظ التي أقذفها انما أقذفها لتتلاشى بعد حين كما يتلاشى البخار في الفضاء . وكمال محاضرتي ان تفهموا معناها لا ان تحفظوا مبناها ، لان المعنى متى اشرق في الذهن ووضح في الخيال وجد اللفظ سجناً يحد من سعته ويضعف من قوته . فالفهم والدقة والوضوح غاية النثر التي لاغاية له غيرها ، واعني ان الكلام المنثور يحيا حياة قصيرة ثم يموت . . .

وما ينبغي ان يحيا النثر الا حياة قصيرة ثم يموت بعد ان يبلغ رسالته تامة صحيحة واضحة ! ولكن الشعر خالد تتجدد ألفاظه بالقراءة ، وتحلو معانيه عند الاعادة . وقيمة الشعر في شكله الظاهر وكلماته المزجاة قد انتظمت كما ينتظم العقد وانسجمت كما تنسجم الموسيقى . فرؤوسنا تحفظ اللفظ تتلوه مترنمة هازجة ، وتعيده على نحو ما سمعته من الرصف والاتساق ، ثم لا تبالي ان نمت او حزنت او ثارت ، ما دام في انشادها رنة الفرح او أنة الالم او نزوة الهوى . ولقد جهل قوم كثيرون طبيعة الشعر ، وهاموا في وضع الحدود وتبيان المعالم ، فما نجحوا ولا استراحوا . ! وعندي ان الشعر لفظ جميل تستمتع به الافهام الراجحة وتتناشده الشفاه اللاغية ،

وتهضمه النفوس الواعية ، ثم تخرجه كما كان لفظاً جميلاً تبقى جدته على الزمان ، كأنما يستعملن في « ميكانيكية » متشابهة قوية رائعة . . . .

هاتان نقطتان ثابتتان تقابل احداهما الاخرى على مسافة صغيرة ، يتأرجح بينهما رقاص مضطرب كرقاص الساعة ، قد تدلى وتذبذب في جيئة وذهوب . اما النقطتان الثابتتان المتقابلتان فهما اللفظ والمعنى ، او الشكل والفكرة ، او الجرس والعاطفة . واما الرقاص المضطرب فهو النفس المتصفحة الممعنة ، تقرأ القصيدة المنظومة اول ما تقرأ ، فتجوز اللفظ لتفهم المعنى ، وتنسى الشكل لتذكر الفكرة ، ثم تخلص من الجرس الى العاطفة تستطلع مطاويها كما هو الحال في التخاطب والكلام . وهنا ، في هذا الطور ، يتساوى النثر والشعر ، ولكنه طور خاطف لايلبث ان يزول . ذلك ان النفس القارئة تكر راجعة بعد هذا الى اللفظ تعيده وتتملاه ، ثم لا ترى خيراً منه صندوقاً يضم أشتات المعنى ، ويحفظ دقائق الفكرة ، ويعلن جمال العاطفة . تعود النفس الى اللفظ بعد ما عرفت المعنى كما يعود الرقاص من جولته الى حيث ابتدأ في الجولان

وهكذا تضطرب النفس القارئة بين اللفظ والمعنى كما يضطرب الرقاص بين النقطتين الثابتتين المتقابلتين ، وهذا الاضطراب بين الظاهر والباطن هو الذي أسميناه « العاطفة الشعرية » في صدر المحاضرة ، وهو غاية الشعر التي لا غاية له غيرها ، ولعل الشاعر الموهوب من يختار اللفظة الصالحة لاحداث الاضطراب النفسي ، وإحياء العاطفة الشعرية .

فالشعر كما أراه يفترق عن النثر ولا يلتبس به ، وهو اشد ما يكون بعداً وتسامياً عن القصة والرواية اللتين تصفان حوادث الواقع وتعرضان مشاهد الحياة ، وهذا التباين نلمحه واضحاً في الوضع الطبيعي الذي يأخذه قارىء الرواية وقارىء الشعر . فالأول ينساق مع تيار الحوادث ، فينفجر او يغضب او يفرح او يحزن ، وقد وضع جبهته بين كفيه ، وركب رأسه فيما يقرأ ، وتعجل التلاوة ليأمن الذي يلي ويطمئن للخاتمة ، فجسده غائب ، وحواسه فارغة ، وعقله تائه لا يشعر بما حوله ولا يدرك الا ما هو فيه ، ولو أنصفنا لقلنا ان قواه الجثمانية قد انحلت ، وان قواه النفسانية قد انقلبت عقلاً يمعن ويتلو ويتأثر . اما قارىء الشعر فلا تتقسم

طبيعته ولاتتوزع قواه ، وانما يذهب في القراءة بجوارحه كلها ما دق منها وما ظهر ، ما رق منها وما غلظ ، ما شرف منها وما سفل . فالقصيدة تهيج نفسه وعصبه ، وتوقظ ملكاته الحسية والفكرية ، ثم تزيده على ان يتصور الاشياء ويتمثل الحقيقة كما هي من خلال شعوره غير محرفة ولا ملتوية ولا مضطربة !!

ولكني على هذا ألمح بين الشعر والنثر درجات من الصور خافية متوسطة تربط قطبين متقابلين في الادب ، وتصل بين مظهرين قويين للغة ، ثم تنشىء بينهما حدوداً على وضوحها متداخلة متشابكة ...

— ٤ —

أينظم الشاعر مضطراً ام ينظم مختاراً ؟

هذا آخر ما افكر به واتحدث عنه . والغريب ان الباحثين لم ينتهوا بعد من تقرير شيء في هذا . فالجدال عنيف ، والتعقيد ظاهر ، والعمل شاق . وقد يئست طائفة من الشعراء وتبرمت بالقريض ثم قالت : ان مهنتنا تضني النفس وتأكل القوى ! وصاحبنا « مالرب » يزعم مخلصاً ان الشاعر

الذي ينهي مقطوعته الفنية وجب ان يهدأ مرتاحاً بعد ذلك عشر سنوات . . . !

ينظم الشاعر . . . ولكنكم تدرون متى ينظم الشاعر ، وما حاجتي الى شيء تعرفونه حق المعرفة . ينظم الشاعر حين يفيض قلبه ويمتلأ صدره ، فينطلق لسانه ويقول شعراً . ولكم وددت ان يكون هذا الرأي الفطير صحيحاً سديداً ، اذن لاحتمل الشاعر تكاليف الحياة ورضي المبين بميسور الشقاء ! ولكن القريحة الفنية قد تتبلد وتظلم حتى لا تعي أمراً ولا تنطق حرفاً ، فمن يقول بهذا الرأي الغرير يخضع الشاعر لسلطان القدر العابث ويغدو الانتاج الشعري حينئذٍ مرهوناً بالمصادفة المواتية واللمحة المشرقة ، او متصلاً بالوحي العالي والموهبة الخارقة . ولست أعلم افتئاتاً على حرية الشاعر وامتهاناً لكرامته كهذا الرأي القائل العاثر يجعله منفعلاً لا فاعلاً ، وحاكياً اميناً يقول ما يلقى اليه من الكلام . وهو ، على هذا ، يحاسب كما يحاسب مدير الصحيفة المسئول ، فما كان خيراً قالوا هذا من عند الله ، وما كان شراً قالوا هذا من عنده ! والعجيب ان الكثرة من الشعراء تؤمن بهذا

الراي وتناضل عنه او هي على الاقل لا تجد الغضاضة الذليلة بأن ترضى قانعة بمشيئة المصادفة والوحي .

لقد توافرت الادلة وأثبتت التجربة ان الشعر الذي يعترف بجودته وبلوغه المنزلة الرفيعة التي تملي على القارىء اثر الوحي والاحساس النفسي ، انما هو في الواقع من عمل الجهد الدائب ، والارادة الصابرة ، والتفكير العميق . أفلا نحس بهذا المجهود الكبير الذي يبذله الشاعر حين نقرأ قصيدة من قصائده الطويلة الجميلة ؟ فنحن نخطىء كثيراً ان حسبنا أن الشعر وحدة لا تقبل التجزئة ، وموهبة لا تقوى على المران ، وأثر لا يخضع للزمن .

يمتاز الشاعر من بين الناس كافة بلحظات مشرقة خاطفة تعصف بذاته وكيانه عصف الريح بفروع الشجر ، فتتفتح مغاليق نفسه ، ويطل على دنياه الكامنة ، ويلمح عجائب الروح . تلك لحظات ثمينة عزيزة تضيء ما اختبأ بين اللحم والدم ، وتبعث من المعاني والصور ما لا يفهمها او يقدرها الا الشاعر وحده ، لانها مختلطة بأوضار المادة وصادرة عن أسرار الظلام . وهي معانٍ وصور لا تثبت للمنطق الظاهر

ولا تلين للبيان الشعري ، وكل ما في الامر انها قطع تنتثر من اعماقنا على حالها الطبيعية كما تنتثر الاحجار الكريمة من جوف البركان . ولقد ينبغي ان نطرح الاوشاب ، ونحتفظ بالعنصر الصالح النقي لنذيبه في قالب جديد ، ونقدمه جوهرة خالصة للناس .

فالذين يؤمنون بالوحي الشعري يقتلون العمل والابداع ، ويرضون بالشاعر وسيطاً تملي عليه القدرة القادرة ما تشاء من ضروب القول وألوان المطالعة . وما لمثل هذا يسخر الفن ويخلق الشعراء ! لشد ما هزئنا بالذين كانوا يؤمنون بحلول الجن اجساد البشر ، ثم يجرون على السنتهم ما يشهدون من الحجج واللهجات والنزوات ! نعم ان الشعور الصادق في اللفظ الجميل قوام الشعر الصحيح ، ولكن الشعور النفسي لن ينبجس صافياً عذباً مهيئاً للبيان ، وما احسبه يصفو ويعذب الا اذا نهد له الشاعر بنشاطه ، فجرده من الادران التي تمازجه ، ونفض الغبار عنه ثم أهداه للقارىء أنشودة رائعة وأثراً كاملاً . . .

-٢-

الحاجة الى الشعر

سيداتي ، سادتي

هنالك في « برجراك » المدينة الحلوة الهادئة ، صديق لي منذ اربعين عاماً ، وشاعر كبير اسمه فرنسيس فيلي غريفان ، مات بالامس واحمرتاه ميتة المغمور . فهل تسمحون لي ان اشيع الشاعر ببعض العبرات ، قبل ان نتحدث عن الشعر ببعض الكلمات ؟

لقد كان غريفان اميركي الدم والارومة ، ولكنه كان فرنسي الروح والارادة . احب فرنسا حباً كبيراً فاستوطن أرضها ، واتصل بأهلها ، ونظم بلغتها ، وكان له في هذه القائمة الكريمة من الشعراء الاجانب مكان مرموق . تعرف بهنري رينيي وتتلمذ على ستيفان مالارمي ، فغسل حاسته الفنية في مياه الرمزية المتقدة في ذلك الحين ، وما كاد ينظم حتى تلاقت على شعره السمات الانجلوسكسونية والسمات الفرنسية . وهام

بالشعر الموزون اول الامر ، ثم انتهى الى هذا اللون الطليق من الكلام الذى يسمونه « الشعر المنثور » ...

واستميحكم العذر في تلاوة مقطوعة لغريفان يبكي فيها استاذه الشاعر مالارمي بكاء خفياً لطيفاً – علّ في تلاوتها ما يثلج روح الفقيد الراحل ، ويهيأ السبيل الى الموضوع الذي نعالجه :

دمعة

اذا قيل لك مرة : « أيها الاستاذ !
ان النهار يتنفس
وهذا الشجر أصفر كله
أيها الاستاذ ، لقد فتحت النافذة
فأذا الفجر يتشقق من عتبة الشرق
واليوم عما قريب يولد ! »
فأني لأحسبك تقول : « دعوني ، فأني أحلم »

واذا قيل لك مرة : « ايها الاستاذ ، نحن هنا
أمام بيتك ، كأمس المساء
أحياء أقوياء
نحن هنا ، جئناك ضاحكين
نرصد الابتسامة والرزانة »
فأني لأحسبهم يقولون : « ان الاستاذ قد مات »

أزهار من سقف بيتنا
أزهار كصفحة الكتاب
ولماذا الازهار ؟
هذا شيء من النفس ، أغنية خافتة
تدور وتهبط
كما تهبط الاوراق وتدور
هذه خجلة الحياة وغضبتها
وألفاظ نرددها - على قبرك !

فرنسيس فيلي غريفان

« البورجوازية » سمة الرجل الثري المصري المتهم في ذوقه وحسه وشعوره . تقرأ له المقطوعة من الشعر ، أوتضرب له اللحن الموسيقي ، او تطلعه على لوحة زيتية ، فلا يرهف الك السمع ، ولا يفتح الك العين ، ولا ينحك العطف ، ولا يطارحك الطرب ، ولا يساجلك الاعجاب ، وانما يفغر الفم المشدوه في انكماش الذي لم يفهم ، ويلوي الرأس من ثقل ما ألقي اليه من الاصوات والخطوط ، وقد غلّق من دون الفنون كلها أبواب نفسه المتبلدة ، فما تدري أصخرة هو لا يهتز ام مرور لا يعي !

كذلك كان الرومانتيكيون من أصحاب الادب الوجداني يقولون حوالي عام ١٨٣٠ ، وهي صورة مزرية خسيسة حقاً ، ولكني لا أظنهم على صواب فيما كانوا يقولون ، ولا أوافقهم على صحـة الصورة التي كانوا يرسمون . فالبورجوازي امرؤ يتذوق الآداب ، ويستمع الى الموسيقى ويقتني اللوحات ، ويطرب للجمال . وهو بعد هذا مثقف واسع الثقافة ، يتسقط صور العلوم وألوان الفنون ، ويقرا

الكتب عن لذة ورضا ، ثم لا يحب ابداً لعقله وقلبه ان يكونا في هذا المستوى الوضيع من النأي عن مواطن التفكير والشعور . والى هنا نقف في الثناء على البورجوازي وفي تصحيح صورته التي رسمها الرومانتيكيون . فهو كما رأيتم رجل ممتاز يعلو على طبقة الناس بدرجات ، ولكن عنايته بالآداب والفنون لا تمتد به الى حد الشعور بـ « الحاجة » اليها كأنما هي بعض ضرورات حياته العقلية والوجدانية أو بعض مقومات نفسه التي يحملها بين اضالعه . فهو يتذوق الشعر ، ولكنه لا يعيش في الشعر ولا يحيا للشعر ، ولعله يصدف عن الشعر كل الصدوف ولا يفطن اليه الا اذا نزل بساحته ضيق في المال او طعن في الجاه او فجيعة في الاهل . ذلك ان حياته العملية قد انتظمت واستوت بعناصر شتى غير عنصر الشعر والفن ، فما يهتم بالترف الفكري الا بمقدار ما تسمح له الظروف !

واني لأعود الساعة بالخيال والذاكرة الى ايام الصبا والشباب ، وانشر الماضي البعيد كله ، فلا ارى غير عصبة من الفتيان قد كلفوا بالفن كلفاً خالط اللحم والعصب ،

حتى ليحسبونه الغذاء الوحيد الذي يأخذ بيد الوجدان ، او الهواء الطلق الذي يحمل نسيم الحياة . كانوا يرون في الفن ضرباً من التصوف وديانة جديدة هي وحدها التي ينبغي ان تملأ الرؤوس ، وتشغل القلوب ، وتقيم الصلات بين الناس . والهفي على ذلك العصر المفعم باسباب الوجدان ، وعلى ذلك الاسلوب الذي انتهجناه في الحياة لمعرفة الحياة ! لقد كانت شرائط التربية الدينية متوفرة نامية تبث في الشبيبة الناشئة معنى الحب والخير والايمان بالله . وكانت نظريات الفلسفة ومواثيق العلم لم تحقق للناس أغراضهم الفكرية والنفسية ، والكتاب الواقعيون لم يصوروا في آثارهم غير الجانب الدميم الفاسد من الحياة . ونظرنا فاذا صفحة بيضاء من النفس تدعونا الى ان نكتب فيها سطور اليقين وخطوط الجمال ، فما كنا نجتمع في ايام الآحاد حول الموائد الشهية ، ويأخذ الاساتذة والطلاب منا في مطارحة الحديث ، ونستمع الى أناشيد بيتهوفن ومسرحيات فاغنر ، حتى تأخذنا نشوة غريبة من الهيام ، ونحوم في جو من الشعور الفني الجميل ، وترفض اجتماعاتنا عن نور لطيف

يضيء جوانب النفوس ، واحساس قوي بالحياة ، وتفكير مندّى بالايمان !

واليوم لا ادري علامَ تنطوي نفوس الشباب اذا اختلف بعضهم الى بعض ، او تحلقوا حول اسطوانة من الغناء ، او تخطروا في أبهاء « اللوفر » . أينغمسون الى الاذقان فيما كنا ننغمس فيه من مفاتن الفن وأجواء الشعور ؟ أيبصرون بعض ما كنا نبصر من حقائق الجمال واضواء الايمان ؟ أيدخرون في نفوسهم احساساً بالحياة يتلون وينمو كلما خالطوا الناس ، او تأملوا الطبيعة ، او رجعوا الى الله ؟ أيشعرون بالحاجة الى الشعر ، يرتلونه في الاصباح والامساء كما يتنفسون الهواء ويأكلون الطعام ؟ لست ادري . . . انما أدري ان مشاغل المادة والسياسة هي وحدها مع الاسف تمثل الآن الدور الرئيسي في المجتمع وتملأ رؤوس الشباب . والمادة والسياسة آفتان اذا استبدتا بالعقول والقلوب شغلاها عن كل شيء في الحياة ، وأوردتاها موارد التبذل الفكري والاضطراب اليومي ، وخلقتا لها مشاكل جمة هي من التعقيد والاشتباك بحيث تستهلك القوى وتتدنى بالانسانية . فياليت

شعري ، أين مكان الفنون من هذه الدنيا القائمة القاعدة ، دنيا المادة والسياسة ؟

كانت الصناعات اليدوية فيما غبر من الازمان قوية الانتاج رائعة السمات ، جميلة الاشكال ، تبدع بمهارة دقيقة من صور العمارة ، ومن هندسة النحت والفسيفساء ، ما يدهش النواظر والالباب والاحلام . هذه باريز ، أم المدن الساحرة ، فسيروا ان شئتم في بعض احيائها القديمة ، وقفوا قليلاً في شارع « مازارين » او في شارع « دوفين » فسترون من غير ريب تلك الاروقة الصغيرة الحديدية قد برزت من بعض البيوت العتيقة التي تنحدر بتاريخها الى القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر ، وستعجبون على الخصوص بتلك القطع الحديدية التي التوت وتعرجت واستقامت على شكل بسيط أصيل لا ضريع له ـ لبساطته واصالته ـ بين الاشكال الهندسية العالمية على الاطلاق . وكذلك كان الشأن في صناعة الاخشاب ، وصناعة النقوش ، وصناعة الاواني ، وصناعة النسيج ـ كلها كانت مبدعة على ادق ما يكون الابداع ، وكلها كانت جليلة على أروع ما يكون الجلال ، لان الحدادة والنجارة

والنقش كانت ، كالشعر والموسيقى ، فنوناً يحرق لها اصحابها المبدعون جميع ما ملكت أنفسهم وأيديهم من المواهب والشعور والاناة

والاغاني الشعبية كانت هي الاخرى صناعة رائجة في سالف العصور ، يرددها المرء على شفتيه ومع أصحابه ترديداً متصلاً ، فيسكر من فرط الاحساس الذي يأخذه عنيفاً قوياً ، ويهيم مع نفسه هيام الواله المجنون . حتى الالفاظ ... لقد أخذ بعضها يمحى من ادب الادباء وشعر الشعراء لينزوي قابعاً في احدى زوايا المعاجم اللغوية على انه اثر تاريخي قديم . ولكن هذه الالفاظ المهجورة كانت ولا تزال من قوة الحياة وإصالة الابداع بحيث تكشف عن روح الامة التي انبثقت منها ، وتدل على قيمة بيانية كبرى ، وهي بعد هذا ذات طعم شهي وحلاوة ساحرة وجرس جميل . أفما ترون في ذلك ياسادتي دليلاً على انطفاء نور الذوق في بعض جوانبه ومظاهره الفنية ؟ لقد نستحدث الفاظاً من الفاظ ، ونبدع تراكيب واصطلاحات ، ونولد كلاماً من كلام ، فما ننفذ الى كلمة الشعب ، و لا نعلن روح الامة ، ثم لا ننأى عن الجو

الصناعي الآلي في أغلب ما نحيي من الكلمات .

ان الاكاديمية الفرنسية مكتب رسمي مدني ، لا عمل له فيما يبدو للناظرين غير تسجيل المواليد والوفيات من الالفاظ ! لشد ما كنا نحزن ، ياسادتي ، حين نأد بايدينا كلمات حية شعبية من ذوات الطابع الشعري الساحر ، لأن احداً من الفرنسيين لا يسمع بها اليوم ولا يقذفها على لسانه . والمعجم اللغوي الذي نتصفحه لا يرجع الى اكثر من اربعين او خمسين عاماً . فواحسرتاه على الكلمات التي كانت الى امد قصير تنطق من فرط الحياة الزاخرة بين جوانبها ثم تموت موءودة من غير ان نذرف العبرة الحرى على جمالها الذاوي وشبابها المهصور . ومثل هذا الوأد على الحياة كثير مكرور مأسوف عليه كل يوم ، فما نرى الخطورة على فداحة أثرها في هذا العمل من تسجيل المواليد والوفيات من الالفاظ والكلمات فذلك شأن الحياة في كل لغة من لغات الدنيا ، وانما نرى الخطورة في سمو الموءود من الالفاظ ، وجلال الآفل من الكلمات ، مما لا نجد له العوض ولا الضريع .
ولقد وضعنا في العام الغابر لفظة « العقلية » ولفظة « العالمي »

بين الفاظ المعجم الفرنسي على الرغم من التواء جمالها وخفوت صوت الحياة فيها

وشيء آخر اكثر خطراً واعمق اثراً من كل ماذكرنا ، هو اضمحلال الاساطير من مجالس الشعب ومحافل الافراد ! لقد كان القصص الخرافي مادة خصبة ، سحرية ، عجيبة الأثر في وجدان الناس ، ينفعلون بها انفعالاً حاداً ، ويطربون لها طرباً شديداً ، ثم يتخيلون من خلال ألوانها شتى الصور الطريفة الممتعة ! فكيف يذوي هذا الفن العالي في المدن وفي القرى ، ليدخل الى « الفكلور » كبعض الآثار الماضية التي ماتت ؟ إن مجموعة فريدة رائعة كمجموعة « الف ليلة وليلة » هي القوة الروحية الباقية التي لا تجمد على نص واحد ثابت ، وانما تتمثل في ألف نص ونص مما يحكيه القصاصون على هواهم حين يديرون الحوار ، أو يبدلون اللهجة ، او يحملون العقدة ، او يدخلون ما شاءوا من الصور التي تلائم أخيلة الناس واذواق الجماهير . وهنا تبدو حياة الأثر الفني العظيم اذ يتقلب على النفوس ويتطور على الافواه ويخلد على الزمان . ولكن الاساطير ماتت ، والقصص الخرافي اضمحل

وعـاد كل اولئك مصدراً من مصادر التـاريخ ، واثراً من آثار الماضي ، ومادة دراسية من موارد « الصوربون » !

تلـكم علائم خطرة شديدة الخطورة في انحدار هذا العصر نحو العقم والفراغ والفسولة ، فما عسى ان نصنع إزاء الرجعة البيانية والنكوص الفني ، والناس لا يستطيعون بأنفسهم ان ينتزعوا اللذة من انفسهم او يستمتعوا بلغتهم ؟ نحن لا نقول اليوم الا كلاماً موجزاً سريعاً عارياً من وشي الفن وتهاويل الجمال ، كأنما لغة الهاتف او « التلفون » هي اللغة المثلى التي تحتذى في الحوار والخطاب والكتابة وسائر اسباب الاعراب عما يعتلج في القلب ويدور في الرأس من المشاعر والخواطر

— ٢ —

الصناعات الفنية في شتى الدنى والآفاق والاشكال لم تبق ، بإسادتي، ضرورة ملحة من ضرورات العصر ، ولا حاجة مقوّمة من حاجات الحياة ، وانما صارت الى نوع من الترف والتظرف والزينة ، ودخلت حدود الكماليات المشتهاة في بعض الاوقات . تظاهرها الحكومات التي تحرص على انهاض الفنون ، وتشجعها الاندية التي أنشأها أصحاب الذوق . وصناعة الفن في

هذه الحال المتداعية لا تمد اللغة باللفظة المبينة التي تشف عن الاحساس ، ولا العبارة النابضة التي تبعث على الحياة . والفجيعة الفادحة ان الواحد منا لا يلقى كل يوم الا اصنافاً من الكلمات المجردة التي خلقتها السياسة العابثة والآلة الميكانيكية . وساد الشعر والفن من وراء هذا التجريد انحطاط كبير في مواد بنائه وعناصر تركيبه ، بل لقد أصاب العقل من خلال المجردات السفلي منطق دخيل يكاد ان يتهدم من فرط الالتواء والزيف . فأنتم تلاحظون بلا ريب ان روح النقد في هذه الايام تنحدر الى دركة الضعف التي لا يقوى معها على تمييز الصحيح من الفاسد او الغث من السمين . وباطل كل ما تقرؤه في الصحف والكتب من الفصول والبحوث التي لا يحكمها الرأي الاصيل ، ولا تلائم بينها الحجة الدامغة ، ولا يدعمها منطق الحوادث والوقائع ، ولا تؤيدها طبيعة الاشياء والامور . فلو اخذتم هذه النصوص والدراسات بين ايديكم ، فعصرتموها وعصرتموها لتتبينوا قيمتها وإصالتها ، لراعكم الفراغ الذي يملأ الوفاض ، وادهشكم المحصول الذي لا يحمل الثمر ، وأحزنكم ان لا تتبينوا في

الا كـف شيئاً . . . وبعض هذا او كله يرجع القهقرى باللغة دركات بالغات ، ويشوه على الخصوص من عمل الشعر الموهوب والفن المبدع

لقد خلا مكان الفن من الشعر الذي يرجع بأصله الى النفس ، ويجيش بروحه من الحياة ، ويسترسل بجرسه على السجية ، ويندس بجماله في الشعب ، فأجدبت اللغة من عيون الادب ومعارض الشعور ، ثم قامت على الالسن عريانة مما يحببها الى الناس ، حريبة من سبل الفتنة وطرق الاغراء ، فبأي ضرب من ضروب المسرات تلهو الشبيبة حين تقصد الى المفاكهة او تحرص على المتعة او ترغب في الجمال ؟ ان العصر الذي خلق السيارة والطائرة وأبدع وسائل السرعة والراحة ، قد أنشأ في حدود شرائطه الصناعية نوعاً من الشعر لا يقتضي الجهد الناصب من صاحبه ، ولا يدل على المشاركة المباشرة من صانعه ، ولا يكشف عن الموهبة الاصيلة فيمن ابتغاه ، وانما هو لون من الاحساس يختلف شدة وقوة حسب اختلاف الوسائل التي تعطيها الفيزياء والآلة للرجل المتمدن الراقي في هذا العصر . فأن أعيننا الباصرة

لتنصب على مشاهد رائعة من العمران والرياض والماء والسماء ، وان مسارحنا اللاهية لتزخر بفاتن بهيجة من التمثيل والرقص والموسيقي ، وان ارادتنا الصلدة لقادرة على استحضار ما جد في اطراف الارض من الاحداث . فطبعت « المرعة » بميسمها العصري كل احاسيسنا العقلية والوجدانية ، وحرقت الشبيبة في مسراها الدافق كل لذاذاتها ومسراتها وأفاويقها !

وانا ارجو ان لا يكون في هذه الصالة التي تستمعون فيها الى محاضرتي مهندس او بناء يعيب علي ما اقول من الكلام في هذا العصر الآلي السريع . فأني ما أحب ، ايها السادة ، أن أصطدم معه فيجتويني وأجتويه بالرأي والعرض والتصوير . وأذكر اني قلت لبعض اصحابي الذين احبهم من المهندسين والبنائين منذ أيام معدودات :

« ان لديكم معشر المهندسين والبنائين وسائل قوية بالغة القوة لانشاء دعائم ما تنشدون من فنون الهندسة وشامخ البناء . فهذا الملاط الشديد الآسر الذي تدعونه « الشمنتو » يمسك الحجر الي الحجر ، ويصل بين الجدار والجدار ،

ويشد السقف الى القواعد ، ثم يمد في الفضاء ألسناً طويلة من العمران تناطح السحاب وتلامس السماء . وهذا جميل وواضح ومحمود ، ولكنني ما وقفت يوماً إزاء بنيانكم السامق لأمعن النظر في بعض تفاصيله وجزئياته وعناصره ، لأن ذلك من اللهو الذي لا طائل من الاستغراق فيه وإزجاء الوقت له ، وانما اقف ممعناً متأملاً ازاء بيت قديم من بيوت المدن او كنيسة عتيقة من كنائس القرى ، فهنالك الحجرة من الحجارة تأخذ من وقتي الساعة والساعتين ، وهناك النتوء الناشز من العمارة يقوم على الفن والابداع والفكر ، مما تملق به العينان مني والجوارح ، فلا امل النظر الى ذلك مهما طال وبعد وأغرق ، ولا اشبع من الاستمتاع به مهما استجمع اسباب القوة والكمال والجمال . . . انا لن اقف إزاء الناطحات للسحاب من بنيانكم التي قد تنيف عن المائتين من الاقدام طولاً ، لأنني بمسطرة كمسطرتكم وبركار كبركاركم أستطيع أن أخط أخوات لها كثيرات على الورق بين جدران غرفتي ، ولأنني اذا شئت استطيع ان أراها في طوكيو وفانكوفر وهونولولو ومرسيليا ، واستطيع ان اراها أنّى اردت

وحيثما اردت»

ولست اجهل ان في « ناطحات السحاب » شعراً يروع بجماله وقوته ، فأي الناس لا يزيغ بصره ولا يهلع فؤاده حين يرى وجه نيويورك من البحر وهو قادم اليها على باخرة ؟ ولكن هذه الابنية الشامخة على ضخامتها وهول منظرها لم تنشأ الا ليراها الرائي على بعد سحيق ونأي بصر ، فلو اننا اقتربنا منها او جلسنا الى سفحها لبدا لنا ان الساعة كثيرة عليها اذا هي تقضت في سبيل درسها وتأملها

ان من طبيعة العصر الآلي الذي نعيش فيه ان يقدر القيم على هواه ، ويحوّر من وسائل الحياة كما يريد ، ليضع مكان القوى النفسية والوجدانية قوى ميكانيكية صناعية مستمدة من روحه ونزعته ، فمات شعر القوافي وعاش رغد الآلة ، واطمأن الناس الى حياة الدعة والراحة . فأغلب الظن ان جمهرتكم الساحقة لا تستخدم ارجلها في المشي ، ولا تروض سيقانها على الركض ، لان لها من سياراتها وعرباتها التي تنتظرها على باب هذه الصالة ما يحول من دون نصب المشي ان يتسرب الى الارجل ، وما يمنع عناء الركض ان يرخي السيقان ، فنامت العضلات

اللحمية عن العمل ، وغدت عبئاً من العبث . ولكن حضارة الآلة ساهرة لم تنم ، فايقظت العضل الهاجع واللحم الراكد بالسيور ، والفوتبول ، والتنس ! وكذلك الشأن في حاجات العقل والوجدان ، فأن العصر الصناعي ليغمرها بالمسليات التي تريح ولا تضني ، ويمدها بالمعارف التي لا تريق عرق الجبين ولا تحتاج الى الارق والالم والدموع . وانبثق من كل ذلك شعر مهيأ كامل التكوين ، قوي لاشك في قوته القادرة على طمس شعر القوافي ، وهو شعر لا ينسلخ من مناظر الطبيعة ، ولا يرجع الى معالم الاشياء ، ولا يصور خطوط الحياة . وكان ثمن هذا الشعر « العصري » غالياً باهظاً في تضاعيفه من غير ان نتبين فيه وجوهنا وشخصياتنا وأحلامنا .

والجهد كل الجهد انما ينبغي ان يبذل ويصرف في قتل هذا الشعر الكاذب الذي لا يعكس صور نفوسنا على حال من الاحوال ، بل المفروض ان نشعر اعمق الشعور بما سوف يؤول اليه مصيرنا الادبي والفكري حين يسود الشعر الزائف . والسبيل الى ذلك هين واضح : نعمد الى دفتر صغير من دفاتر

الجيب فنسجل فيه كل يوم ملحوظة على النحو التالي :
« خسرت اليوم كذا من عقلي وكذا من قواي وشيئاً من الشعر . انا لا ارضى بهذه الخسارة . لسوف اضاعف جهدي لأعوض ما خسرت واكثر ! »

— ٤ —

الشعر طائفة من الذكريات والآمال والصور والاحلام ، تضطرب كلها في دنيا النفس على حالٍ من الابهام والتداخل عظيمة ، او هو حالة نفسية انبعاثيةٌ من طراز خاص ، تهيجها الحوادث التي تقع لنا في الحياة ، وتبدعها الاشياء التي نتصل بها من قريب ، ويعمل لحسابها كل شيء من حولنا ، فما تزال في تفاعلٍ مع المحيط وتأثر بالواقع حتى تنقلب الى حالة « قابلة » تلتقط كل ما يخطر عليها من نسائم العالم الخارجي . وتجتمع الاصداء النفسية على شكل غير واضح ولا مفروز ثم تختمر من نفسها وتقوى بذاتها ، فأذا الحالة القابلة تنقلب الى حالة « منتجة » تولد الاخيلة والصور والخواطر ، واذا الشعر كله « حالة نفسية مزيج من الحالتين « القابلة

والمنتجة » . فاما الذكريات والاشجان والصور والخواطر وما الى هذا فاستجابات لما هو قائم من حولنا ، لا نعرفها الا في حدود انفسنا ، وما هو قائم من حولنا فأسباب لهذه الاستجابات ، لا نعرفها الا في حدود الواقع من الحياة . وتفشل الاستجابات النفسية او تصطدم عند التحقيق مع الاسباب الخارجية ، فنثور ، ونتمرد ، ولا نرضى بالاحداث والامور ان تجري على هواها . وقد نرفض شراً لا بد منه كالموت . وينشأ عن الثورة والتمرد مشاعر مباشرة وخواطر آنية هي الشعر الذي نتحدث عنه الآن !

بهذا المعنى نفهم الشعر، وهو مفهوم الخاصة من الرمزيين . على ان للشعر معنى آخر يتصل من بعض نواحيه بالمعني الاول ثم يفترق عنه بعد ذلك في كل شيء ، ونعني به الصناعة البيانية القائمة على اللغة ، وهو مفهوم العامة من الادباء ، يرتكز في مادته على الصور والاخيلة التي اشرنا اليها من قبل . فالمعنيان للشعر كما ترون متصلان مفترقان ، أولهما مبهم واسع الافق ، وثانيهما ضيق واضح المعالم ، وبينهما حدود متداخلة !

والشعر من حيث هو حالة قابلة وحالة منتجة متصل كل الاتصال بالوضع العميق من قوانا وملكاتنا ، فما نقوى على الحياة من دون هذه الالوان من التباين والتغاير التي تسيطر السيطرة كلها على ذبذبة المصدر الاصيل من طاقتنا والتي تتأثر بدورها من هذه الذبذبة . ومن هنا تنبثق او تنقطع اعمالنا التي نقوم بها في الحياة . على ان هذه الاعمال الناشئة عن تجريد الاشياء المتخيلة في حدود النفس او التي تستجيب فيها ، طائفة تتميز بنفعها المباشر وفائدتها الحيوية ؛ هي الاعمال التي تحاول ان توجّه لمصلحتنا وحاجتنا كثيراً من الاشياء التي تحيط بنا : « انا عطشان ، واني لذلك متناول كأساً من الماء » ـ لقد خطر ببالي قبل كل شي اني عطشان ثم قمت بعد ذلك بتحقيق فعل الشرب . وهذا عمل نافع مفيد ، وان شئتم فقولوا انني اراه أنا عملاً نافعاً مفيداً ، وحسبي هذا ، فلقد أدخلت تعديلاً على وضع الكأس وعلى وضعي انا حياله . ولكن هنالك اعمالاً تصدر عن شكل آخر من اشكال العاطفة ، كالخواطر التي لا تستهدف تبديلها نحن في انفسنا او تبديد نوع من الضيق الداخلي من مثل شعر لا يخفف من وقعه

وضرزه أي فعل مباشر من أفعال التضميد والمواساة . فالضحك والدموع والصراخ اعمال لا تبتغي غرضاً خارجياً ، وهي لهذا تنتظم في سلك « وسائل الاعراب » . ومثل هذه الاشعاعات الصادرة انما هي لغة ابتدائية بسيطة ، لأن تلك الافعال الانبعاثية لا تخرج عن حد الانتقال بالعدوى كفعل الضحك وفعل التثاؤب او عن حد الشعور بها على نحو محبب كالدموع والآهات . واللغة المبينة نفسها اذا ترسلت على شكل عفوي فطري انما هي تفجر نفسي يزيح عن كاهلنا ثقل بعض الاحاسيس من ذوات الضغط والاثر . ومن الواضح الذي لا ريب في وضوحه ان خصائص هذه الاحاسيس قد تكشفت بالتثقيف . وقد اخترع المخترعون وسائل ، وطبق العمليون افعالاً على بعض المواد الخارجية حتى تنقلب الى شيء خالد يبقى الى ما شاء الله ، ويقوى كالآلة على إحياء حالة نفسية وإنشاء فترة من فترات الهيجان والشعور . فلو انني حررت على الورق نوتة موسيقية او لحناً للرقص فانما أنشأ عملاً ثابتاً نستطيع بأرادتنا ان نبعثه حياً من جديد كل حين . واذن فالموسيقي يسجل أفعالاً مهيأة للانتاج من جانب أي عازف ماهر . ولو اني نظمت

قصيدة او رسمت لوحة فأنما أعمل على إطلاق هيجان وتثبيت عاطفة او إنشاء شيء دائم الوجود قادر عند التحقيق على إسماع القصيدة وإيجاد اللوحة . وكذلك يقوم الشيء بغايته ويؤدي رسالته التي أتمن عليها ، اذا صح ان لهذا الشيء غرضاً مقصوداً . ولكن الشعور الاول مهما كان قوياً عميقاً لن يسترجع وجوده في الشكل النفسي الذي كان عليه اول الامر مهما تكن ظروف الرجعة موانية . ونحن انما نحرص على ان نظل أسياد الشعور ونود لو نعمل من أجل الفن ، حتى نهز نفوسنا بعد ذلك بعض الاهتزاز ، فما نريد الا ان نمر بأصبعنا وسط لهيب الشمعة . ولعل هذا هو أغرب خصائص الفن على الاطلاق ، فهو يعيد لنا اثراً شعورياً طالما تحسسنا به من قبل في أطواء نفوسنا ، ولكنه لا يعيده بالشدة والقوة التي كان عليها في اول الامر . ومهما يكن من أثر الشعور المعاد فأن الفن ليمدنا من نفسه بالوسيلة التي تكشف عن جانب من عواطفنا ، فما تستعان الا مقيدة بحدود الواقع ، وهو يحيي كل هيجان قديم على حال قريبة تنأى بعض التأني عن مواطن الدقة الاولى . والفن ، بعد هذا ، يستعين بما يسمونه « العقل » على التمييز والتحليل

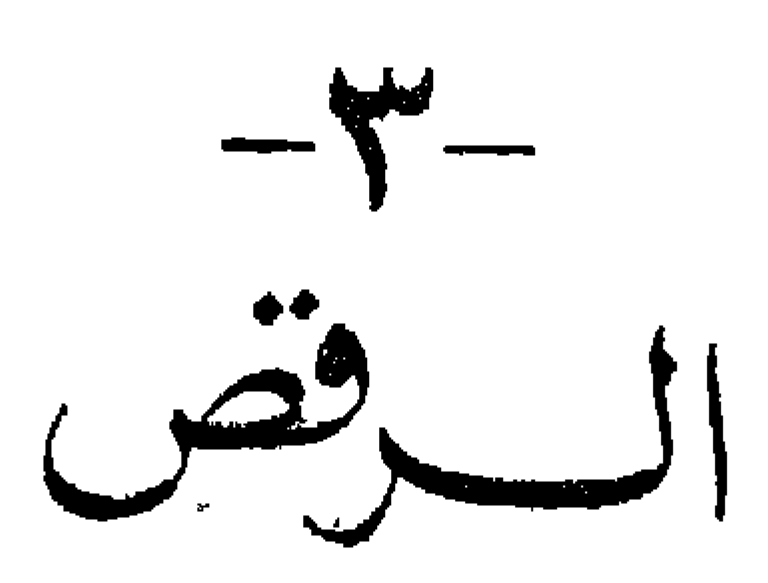
والتحديد ، حتى لا تبرز العواطف عريانة بسيطة ، وتتكشف الاهواء بالبيان الآني المباشر . والعواطف والاهواء لامدة لها نستفيد منها ولا ممكنات فيها تقوى على الدوام .ونحن مضطرون الى ان نطالب الى ملكاتنا العقلية ان تستوقف العواطف والاهواء هنيهات قصاراً حتى تنتفض عن كل ماتحتويه في طيها من الالوان والصور

ان العاطفة أول الشعر وآخره ، وأصل الفن وغايته . والى ان نبلغ هذين الحدين ، فأننا مستخدمون كل وسائل العقل والفكر والتجريد على نحو ما تستخدمها الصناعات التكنيكية الاخرى .

لقد رغب بعض النقاد في ان لا يقرب الشاعر سبيل التحقيق والتفكير والامعان في وسائله المخصصة له ، فهل عاب ناقد على الموسيقي جهده الطويل خلال السنين من أجل صناعته ؟ أيودون إذن من الشاعر ان يكون أقل عناية بشعره من الموسيقي بموسيقاه ؟ بل هل عاب ناقد من النقاد على المصور دراسته لعلم التشريح وأصول الرسم والتخطيط ؟ بلى ، ان أحداً لا لا يفكر في هذا ، فأما الشاعر فمطلوب اليه ان يقول

الشعر كما يتنفس الهواء . . . وهذا خطأ فادح لا أدري كيف أكشف عن زيفه وبطلانه . ومصدر هذا الخطأ فيما أرى انهم يخلطون بين السهولة الشعرية الآنية التي تعطي الشعر لوقتها ، وبين السهولة التي لا تكتسب الا بالرياضة العقلية والجهد الدائب . ومثل هذه السهولة المكتسبة ملحوظة قوية عند لافونتين وفكتور هوغو وهما من كبار الشعراء كما تعلمون . فمن كان في ريب من هذا ، فليسأل النساء الجميلات عن أثر المرآة في التجميل ، وعمل الزمن في الزينة

إن الشاعر يخط على القرطاس شعره ثم يأخذ في تنقيح اول وجه من وجوه قريضه تنقيحاً يحيله بعد قليل الى شيء من الجمال والروعة والفتون


-٣-
الرقص

سيداتي ، سادتي

سيتحدث اليكم في الرقص رجل لا يمارس الرقص ! وهذه مجازفة من جانبي خطرة من غير ريب ، ولكن الراقصة البارعة « مدام أرجنتينا » ستنبيكم برقصها عن كلماتي النبأ اليقين ، وستضعكم بعد حين في إطار الحياة المتحركة العنيفة التي تقوم على الرقص ، وستطلعكم بتثني القد والتواء الجسد على فن شعبي سمت به العاطفة سمواً كبيراً ، وخلق العقل منه وسيلة من أقوى وسائل الاعرب والابداع . فروضوا أنفسكم على الصبر ، واستمعوا الى كلامي الموجز ، فسترون معجزة الرقص بعد قليل ، وإني معكم لمدام « أرجنتينا » لمن المنتظرين !

« تصفيق طويل »

— ١ —

ليس الرقص رياضة عضلية فحسب ، ولا فناً من فنون الزينة ، ولا ألهية من ألاهي المجتمع . إنما الرقص شيء جليل القدر ، سامي المنزع ، مقدس من بعض نواحيه . وكل زمان راز الجسد الانساني في الميزان او شعر بسر تكوينه ووسائله وحدوده ، قد هام بالرقص وقدس الرقص . وانما كان الرقص فناً اجتماعياً أصيلاً ، لأن شيوعه المستفيض ، وقدمه التاريخي ، والاحتفالات الرائعة التي كانت تقام لأجله ، والآراء والخوالج التي كان يبعثها في كل حين ، توحي به وتعمل لخلقه وتؤيده الى حد بعيد . ذلك ان الرقص فن يستمد وجوده من وجود الحياة فما هو الا العمل يقوم به مجموع الجسد الانساني ، ولكنه العمل المنقول الى دنيا جديدة او الى نوع من الفسحة الزمنية نجهلها نحن كل الجهل فيما نضطرب فيه من ألوان حياتنا الواقعية العملية .

نظر الانسان يوماً الى جسده فرأى فيه من القوة واللدونة والامكانيات المفصلية والعضلية ما يزيد على حاجته لتحقيق ضرورات حياته . ثم أمعن النظر اليه فرأى أن طائفة من

حركاته تنشيء بتواترها واتساقها ودقتها وسمتها لذة قد تصل به الى درجة الوجد النفسي ، وقد تشتد اشتداداً ما ينتهي الا باستهلاك القوى وبذل الآلية العضلية ! اما قوانا الفائضة عن حاجاتنا فكثيرة ملموسة كل يوم ، فلطالما أمدتنا حواسنا بأحاسيس لا نفع لها على الاطلاق ، ولا هي تلعب دوراً في هذه العملية الكبرى التي يسمونها « بقاء الحياة » . ولطالما رأينا اشياء لا علاقة لنا بها ، وسمعنا بأشياء لانستطيع استخدامها لمصلحتنا او تحويرها وفق امانينا . وقد يكون من هذا القبيل كلام بعض المحاضرين . . . ! « ضحك متواصل »

وكذلك الشأن في أعمالنا ، فأن طائفة منها كبيرة لا نصيب لها من المكان في سير قافلة الحياة . لقد نرسم دائرة من الدوائر او نلعب بعضلات الوجه او نمشي باتزان دقيق ، ولكن هذا كله لئن خلق علم الهندسة وفن الملهاة وفن الحرب فلقد خلا من النفع في ذاته من حيث العائدة على الاضطراب اليومي . وكذلك قولوا في وسائل الاتصال بالحياة ، كالحواس والصور والاعضاء والاشارات ، فهي تطل على أعمالنا ، وتوزع طاقاتنا ، وتزاوج بين حركاتنا ، ولكنها لا تقف من حاجاتنا

« الفسيولوجية » الا موقف من يجابه المحيط الذي يعيش فيه حتى يدرأ عنا الاضرار ، فما تعمل الا لتثبيت بقائنا وتركيز وجودنا .

ولعل في استطاعتنا ألا نحيا إلا الحياة الدائرة حول ما يمدها بعناصر دوامها ، المعرضة عن كل ما لا يمس تطورها العضوي والا الحياة العاملة لجلب الضروري اللازم لها ، المحققة لرد الفعل المحدود للوسط الطبيعي . وتنتهي أعمالنا النافعة المفيدة عند هذا الحد الحيوي لتنقلب من بعد ذلك الى اعمال اخرى من طراز خاص

أنظروا الى الحيوان الاعجم ، أنما ترونه لا يعمل ولا يبصر الا ما يفيده الفائدة المباشرة في حياته ؟ لاريب أن الكلب يمد عينيه الى النجوم والكواكب في بعض الليالي ، ولكن الكائن الكامن في الكلب لا يعطي هذه النظرة اهمية ، ولا يجني من ورائها فائدة . وأذن الكلب تدرك الصوت والضجيج ، وترهف لها السمع الشديد ، ولكنها لا تستغرق فيها الا لتستجيب لها بعمل مباشر منسجم ـ فأدراكه سطحي لا يجول . وكذلك البقرة ترعى في المروج ، وتقفز من فوق السياج ، وتفر من القطار

اذا مر بقربها ، ولكنها لا تحاول ان تركض وراءه او ترسل باثره عينيها الجميلتين ، وانما تعود الى المرج تقرض عشبه الطري ، وتشرب ماءه العذب . . . ويرجع دماغها بعد مرور القطار الى الصفر من ميزان عملها اليومي

على ان الحيوان قد يلهو في بعض الأحيان ، فالقطط يداعب الفأر ، والقردة تقلد للاضحاك ، والكلاب تتصارع على الثلج ثم يلحق بعضها بعضاً على نحو طريف . ولعل أقوى صورة من صور اللهو عند الحيوان هو ما ترونه عند بعض أنواع السمك الملقب بخنزير البحر : يبدو في عرض الماء بارزاً على سطحه ثم لا يلبث ان ينحدر الى أعماقه او يركض في إثر باخرة او يطل من الزبد او يصعد مع الامواج ليلتمع ويتلون مثلها في ضوء الشمس المنكسر !

ولكن ألاهي الحيوان كلها انما هي على التحقيق أعمال مفيدة واندفاعات انبعاثية ، مصدرها الحاجة الى تبديد بعض القوى المدخرة الفائضة او الى إبقاء بعض الاعضاء اللازمة للهجوم والدفاع الحيوي على حال دائم من القوة المتوثبة واللدونة الحية . والملحوظ ان بعض الانواع من الحيوان كالنمل

والنحل ، مما دقّ صنعه الفسيولوجى وتخصصت غرائزه ، هو اكثر الخلق اقتصاداً بالزمن وحرصاً على الوقت وذهاباً الى العمل المفيد من غير لهو ولا معابثة . أما الانسان . . .

اما الانسان فهو الحيوان الوحيد الذي ينظر الى الحياة نظرة خاصة ، ويعطي لقواه قيمة كبيرة ، ثم يهيم وراء نافلة المدركات والاعمال التي لا تمس حيويته الطبيعية من قريب ولا من بعيد . وقد كان « باسكال » يرى كل فخر الانسان في الفكر ، ولكن الفكر الذي يبني نفوسنا ، كما تشاء بصائرنا ، فوق شرائط حياتنا ، هو الفكر الذي لا يحقق غرضاً من أغراض المنفعة والفائدة . ألا فاذكروا ان الفكر لا يحسن الى الجسم حين يحملنا على التفكير في الموت ، ولربما كانت الافكار من هذا الطراز مضرة للحياة ، إن لم نقل مميتة للنوع . ولعل اعمق أفكارنا هي نفسها التي لا تعنى بمعنى البقاء ، ولا تتجرد له بسبب من الاسباب

ان طاقتنا الشرهة النهمة ، ونشاطنا المهتاج الى اكثر مما يتطلب الغرض الحيوي ، قد نميا نمواً خلق الفنون والعلوم ، وأثارا المشاكل العامة ، وأنتجا الاشياء والاشكال والاعمال

مما لا غناء فيها لأحد من الناس . على ان هذا الخلق والاثارة والانتاج كان حراً بلا ثمن ، وكان ضرباً من عبث الحواس والملكات ، ثم انقلب رويداً رويداً الى ضرورة ملحة وفائدة ملموسة النتائج . والفن والعلم سلكا بطبيعتهما المتباينة شتى السبل لجعل الذي لا يفيد مفيداً ، ولقلب الكمالي ضرورياً . وعلى هذا ، فالخلق الفني والعلمي اذا كان خلقاً للآثار فهو ايضاً خلق الحاجة الى الآثار ، لأن الآثار الفنية والعلمية أعمال تفترض وجود الحاجة اليها والرغبة فيها

— ٢ —

ذلكم ياسادتي قبس من الفلسفة كما قد تقولون ، وأنا معكم في هذا ، ولعلي غلوت في ذلك بعض الشيء . ولكن من لا يمارس الرقص ، ولا يحسن الخطى ، ولا يفهم أعاجيب الارجل الا بمنطق الرأس ، لا يجد العزاء ولا السلام الا في شيء من الفلسفة ، أعني أنه يأخذ نفسه بفهم الاشياء على بعد ، رجاة ان يذلل الصعاب بالمسافة . فمن اليسير أن نبني دنيا كاملة ثم لا نعرف السر في استواء الانسان على قوائمه ! فأن لم تصدقوني

فاسألوا عن هـذا أرسطاليس وديكارت وليبنتز وآخرين ممن تعرفون

على أن الفيلسوف قادر على أن يرصد رقص الراقصة ، وقوي على الشعور باللذة في ذلك ، ثم جاعل من هذه اللذة لذة أخرى تهيب به الى الكشف عن مشاعره باللغة والبيان

ويستطيع الفيلسوف ان يبدأ مهمته بإنشاء الصور الجميلة . ومن قديم يهيم هو بالصور ، يبدعها ويرسلها نماذج قوية خالدة ، فما نعرف صناعة عقلية تحتاج الى الصور كالفلسفة . ومن الصور ما هو مشهور كصورة الكهف لأفلاطون ، وصورة النهر المشؤوم الذي ليس الى عبوره بعد الان من سبيل ، و كصورة « آشيل » اللاهث وراء سلحفاة لاتدرك . والمرايا المتوازية ، والراكضون بالمشاعل ، وحتى نيتشه ونسره وأفعوانه ورجله الراقص على الحبل ، كل هذا مادة خصبة وتصوّر فكري يؤلف تمثيلاً ميتافيزيكياً تبدو على مسرحه شتى الرموز الشهيرة .

على ان فيلسوفي هذا لا يكفيه التمثيل ولا ترضيه الصور ، فما عساه صانع حيال الرقص والراقصة حتى يعلن علمه بالعلم الذي

لا يجهله أحد من الخالق ؟ لعل من الضروري ان يتقي جهله التكنيكي ، ويزيح من طريقه العوائق ، فيركض وراء التساؤل عن هذا الفن الذي يحبه ولا يمارسه

هوذا يبدأ الكلام على عادته ، وعادة فيلسوف الرقص معروفة . هوذا يدخل من طريق غير محدودة ، فما يعرف الى أين ستقوده قدماه . هوذا يدق باب السؤال ، وما للسؤال من الذي لا يفيد نهاية :

ما هو الرقص ؟

— ٣ —

ماهو الرقص؟ ! سؤال حير الفيلسوف ، وعطل فيه التفكير ، ثم ذكر ان للقديس أغناطيوس سؤالاً مثل سؤاله ، وحيرة تشبه حيرته ...

يعترف القديس اغناطيوس أنه ألقى على نفسه يوماً هذا السؤال : «ما هو الزمن ؟» ثم فكر وقدر فرأى انه كان يعرف من حقيقة الزمن كل شيء حين لم يكن يخطر بباله ان يلقي السؤال . فلما تحركت شفتاه به ضاع في مسالك

الفكر ، والتوى عليه وجه الصواب ، فوقف عنده يحاول أن يفرزه ببعض الاصطلاحات الخاصة

كذلك كان موقف فيلسوفي . لقد تردد طويلاً على العتبة المروعة التي تفصل بين سؤال وجواب ، اذا ألحت عليه ذكرى أغناطيوس ، أخذ يحلم بالرقص في ظلال العائق الذي اعترض القديس الكبير

قال الفيلسوف في نفسه : وإنما الرقص شكل من أشكال الزمن ، أو هو خلق لنوع من الزمن ، أو هو زمن من نوع ممتاز

هو ذا يطمئن الى هذا الكلام بعض الاطمئنان ، فيهدأ باله ويستريح من عناء البحث . ذلك أنه زاوج بين صعوبتين ، كل صعوبة كانت لوحدها محيرة تتركه من غير وسيلة ، فما كاد يجمع بينهما في صعيد واحد حتى خصب فكره وولد من الخاطر خواطر ، وذلك ما كان يبتغي من وراء دراسته

لقد أخذ ينظر الى الذي يرقص بعينين غريبتين لامعتين تحيلان ما تريان الى ضرب من الفريسة يلتهمها العقل المجرد ، ثم بجال المرئي المشاهد على طريقته وهواه ، فبدا له ان كل

راقص أو راقصة ينطوي بنفسه على لون من المدة الزمنية يولدها هو من نفسه أو يذهب في مدة مؤلفة من طاقة حاضرة او من شيء لا يثبت على حال ولا يُبقي على غير الممكن . واذ يبدد بجهده نظام الاشياء فهو يخلق في النفوس نظاماً آخر هو الانتاج الدائم النائم عن العمل ، مثله في هذا كمثل النحلة تحرص على ان ترشف رحيق الازهار ، فتقف فوقها مضطربة ساكنة معاً ، تخفق بجانحيها خفوقاً سريعاً يكاد يحسبه الرائي جموداً هادئاً

وفي استطاعة الفيلسوف ايضاً ان يشبه الراقصة بالشعلة اللاهبة او ، على الجملة ، بالحادث القائم على استهلاك طاقة من طراز رفيع

ويبدو ان أحاسيس الجسد أثناء الرقص ، الفاعلة منها والمنفعلة ، تتماسك في نظام ، وتستجيب أبعاضها لدواعي الابعاض ، كأنما هي تنعكس على الجدار الخفي لكرة القوى من الكائن الحي . وما أظنكم الا غافرين لي هذا اللون من التعبير الجريء ، لأني لم اجد لفظاً آخر يكشف عما أريد الا اياه ، ولأني كما تعلمون كاتب غامض ...

الفيلسوف صاحب الذهن السؤول يلقي على عادته أسئلة مستفهمة كبرى بين يدي الرقص ، ويرجو الجواب على « لماذا » و « كيف » وهما كل وسائل فنه في البحث العقلي ، ثم يحاول ان يضع مكان ما يبدو له من الاشياء والاوضاع نصوصاً تصل هذا الحادث المحبب الذي يدعوه « الرقص » بمجموع معارفه التي يعلم او يظن انه يعلم

ما السر في هذا الجسد الذي وخزه من داخله واخز ، فانبرى يجري في حياة مضطربة منتظمة عفوية عاقلة معاً ، ومهيأة من قبل بلا شك ، كأنما أفلت هذا الجسد الراقص من حلقات توازنه المعهود ، وسار في طريق مبسوطة ممهدة ، يحمله ثقله وتدفعه حركاته أو كأنما وهب نفسه لوضع دوري بسيط يحول من ذاته في ذاته ، او كأنما فطر على لدونة عليا تتبرج بين الدورة والدورة كالدوامة تقف على قرنها بأقل سبب من أسباب الدفع والقوة

إن الجسد الراقص — لشبوب الحياة فيه — يجهل مما يحيط

به كل شيء ، فيعني بنفسه وبشيء آخر خطير هو الارض الصلدة التي تطؤها الاقدام الجارية لتحقق غايتها بهذا النثر الذي تخطه بالحركة واسمه المشي . . . بلى ! ينسى الجسد الراقص ماوراء حدوده لانه يصغي لصوت فنه كأعشى ، عيناه لؤلؤتان غريبتان ذواتا بريق يسطع . والراقصة تسبح من رقصها في دنيا غير دنيانا هذه التي تتحيفها النواظر ، دنيا نسجتها هي بخطاها الدقيقة وحركاتها المتواترة ، دنيا قد خلت من الغايات الا غاية الرقص ، وتجردت عن الاغراض الا غرض اللذة ، ليس فيها أمر مرغوب لذاته نتتبعه ونهايته ثم ينقطع اذا تقطع العمل او يوجه الحركات اول الامر وجهة مقصودة تنتهي عند حدود الفائدة المرجوة اذا برزت ، والنتيجة الاكيدة اذا وضحت

ما تعرف الراقصة عالماً خارجاً عن عالمها ، ولانظاماً قائماً الا نظام عملها . ويبدو الرقص من فرجة هذه الزاوية من الكلام كأنه ضرب من النوم الاصطناعي او مجموعة من الاحاسيس المغلقة التي انطوت على نفسها ، فما تطلّ الا على المنشآت العضلية التي تطرد في تساوق غريب هو وليد

الملاوة الفنية واللمحة المرهفة . واللذة كل اللذة في اجتلاء ما يصدر عن عبقرية الجسد الراقص من فنون الصور الرائعة التي تتكسر على جدار الفضاء ، وتتمازج في مكانها بين الارجاء ، ثم تهدأ أو تثور كعصف من الريح ، ثم تتسمر فجأة وقد تبلورت في تمثال من اللحم زانه افترار جميل !

أخص خصائص الرقص انسلاخ من المحيط ، وانعدام للغايات ، واكتمال في الدورات ، وغموض في طبيعة الحركات ، ثم ابتسامات وابتسامات ، غير موجهة الى أحد من المخلوقات ! وكل هذه الخطوط الكبرى ليست مما تتسم بها الاعمال المعهودة في العالم الجاري ، لان ذواتنا الكامنة تستحيل في هذه الدنيا الى وسائط بين الشعور بالحاجة الى شيء من الاشياء ، وبين الاندفاع لتحقيق هذه الحاجة على وجه من الوجوه . وترانا — وهذه مهمتنا — نسلك لمآربنا أقصر الطرق الموصلة اليها ، وشعارنا : الاقتصاد ! ذلك اننا نرغب في محصول الانتاج قبل كل شيء ، ومن رغب في محصول الانتاج اختزل السبيل والزمن والعمل . وأي الرجال في دنيانا الكامل ؟ ! أليس هو صاحب الفهم الصحيح لمقومات واقعه

الذي يحيط به او صاحب الغريزة المقتصدة في الوقت والوسيلة ، الذاهبة بخط مستقيم الى غايتها النيرة الحدود الثابتة الاصول ؟

تلكم هي قاعدتنا في الحياة الى الاعمال . ولكن الرقص فن يضطرب في جوه المخصص له ، المنبثق من نفسه وطبيعته ، فما يقف عند حد مصطنع ، ولا هو يسعى – لا كماله – الى الكمال . إن الرقص الصافي نغمة علوية قوية اللذات ، خالدة السمات ، ما تستشعرون فيها فجوة ، ولا تعرفون لها انتهاء !

ولئن شهدتم الرقص ينقطع في الحفلات والمراقص بعد ساعة او ساعتين من الزمان ، فتذكروا ان عوامل ليست من الرقص ، كالملل او التعب او النعاس او البرنامج ، هي التي لممت على كره منكم بساطه الممتع المنشور ، فاذا هو ينتهي كما ينتهي الحلم باليقظة الى الواقع على ضوء دنيا الناس او دنيا الاعصاب

كنتم نشاوى من الرقص ، تكاد أنفسكم تطير من الطرب ولا تعي ، وقد غمرتكم اللذاذات والالحان ، ونمت عليكم غواية الفتون ، ومشت فيكم خوافي الزمن – وانتم لا تعلمون . كان رقصكم ضرباً من سحر الفن في أبدانكم وأرواحكم ،

ولوناً من الغناء الحلو في قوى الطبيعة من حولكم . ولو سمحتم لي بشيء من الجرأة في الكلام لقلت إن الرقص صار بكم الى حياة خافقة بين اللحم والدم ، قد ألف هيكلها الشعور بالمدة والشعور بالطاقة في عالم مغلق من التواتر الموسيقي المتجاوب . . .

— ٥ —

ها أنتم أولاء واصلون معي الى حيث أردت لعقولكم المفكرة من المصير ، وقد جزت بكم على هون طائفة من الآراء المجردة لأقول لكم إن الرقص اذا كان مصدره من طبيعة العمل العادي المفيد فلقد نأى عنه رويداً رويداً ، وانتهى الى ان وقف منه موقف النقيض من النقيض . وهذا نمط من القول شامل مطلق يسوق بالضرورة الى أكثر من الرقص الذي خصص له هذا الكلام

والواقع ان كل فعل لا ينزع بطبيعته الى تحقيق الفائدة ، وكان مهيأً للتهذيب والنمو والتكامل ، إنما يستعمل في مظهره البسيط على مثال الرقص . وعلى هذا ، فالفنون كلها إنما

في حالات خاصة لذلك النمط من القول الشامل المطلق ، لأنها تقوم بجزء من العمل المفتج للآثار . ما هي القصيدة من الشعر إن لم تكن حدثاً من الاحداث ؟ أوكانت شيئاً مذكوراً من قبل ان تتنزل على القرطاس ؟ أفتعرف لها غاية الا الغاية القائمة في ثناياها من تنسيق الكلم وإبراز الموسيقى وتصوير الحياة ؟ اذا كان الشعر عملاً من الاعمال ، فأن لهذا العمل قوانينه من إبداع الزمن وإنشاء الاوزان . ولعمري ان من يشرع في قول الشعر انما ينحدر بنفسه الى الرقص في دنيا الالفاظ والكلام !

تأملوا الضارب على الكمان والبيان ، وتبينوا فيه الانامل على وجه خاص ، وان شئتم فاجعلوا في آذانكم وقراً لا تسمعون معه صوتاً ولا جرساً . أفما ترون معي ان يديه كالراقصتين او هما راقصتان توفرتا على العمل مدى سنوات لتحققا آخر الامر فناً لا غرض له ؟ تذكروا أنكم لا تتحسسون بأسماعكم شيئاً وانما تشاهدون اليدين الماهرتين كيف تروحان وتجيئان ، وكيف تقفان هنا تارة وتتصالبان أخرى ، ثم تبطىء أولاهما لتقفز أخراهما من الطرف الى الطرف حتى تتقرّى مواقع

الالحان من العاج والابنوس . وما أظنكم الا غافلين عما يحتاج له هذا الامر العسير من طول الدربة ودقة الصنعة. واغلب الرأي انكم تجهلون اللحظة التي يؤول فيها نغم القطعة المضروبة الى المصير ، فما تعرفون من دقائقها ما سيلحق او يتوالى ، ولكنكم لا تشكون أبداً في ان الضارب على الكمان او البيان انما يجري باصابعه على نظام هو الغاية في الاكتمال والغاية في التعقيد — من غير ريب .

على أن حرية الحركات التي تقوم بها الايدي العازفة ، مقيدة بتعقيد الالحان الى حد بعيد ، لأن الموسيقي مرغم على مراعاة جانب الاتزان والقياس والجرس ، شأنه في هذه العوائق الفنية شأن القديس أغناطيوس في صدد تعريف الزمن . ومن الواضح ان كل الحركات « الاوتوماتيكية » التي تلازم حالة من حالات الانسان ولا تدور حول غرض مرسوم معين إنما تنتظم في سمط دوري مفرغ في نفسه

لقد قلت لكم إن الفنون كلها مظاهر شتى للعمل او هي تعود اذا تحللت الى أجزاء من العمل . وليس أدل على صحة هذا القول من النظر الى الآثار الفنية وهي بين ايدي

اصحابها من رجال الفن . إنهم ليهيمون بها هياماً ما يتركونها في الليل ولا في النهار ، ينسقونها في ازمان شتى كأنما هم يغنون لحناً قام في رؤوسهم او يلاحقون خطة رسموها بأنفسهم . وليس الاثر الفني بذاته الا وسيلة يتوسلون بها او مظهراً مادياً لهذا الذي يتحسسونه في جوانبهم

أوه ! ما بال أحداقكم تتسع وأعينكم تجحظ ؟ أفعجبتم مما أقول ، وهذه الآثار الفنية الرائعة لم توف يوماً على التمام والانتهاء بين أيدي الذين يصنعونها من صيارفة الفن ؟ ان الرغبة الملحة في اكتمال الاثر الفني العظيم ليست الا صورة من صور هذه الحياة الخفية المتجددة التي حدثتكم من قبل عن خفوقها بين لحم الفنان ودمه ، والتي سوى هيكلها التجاوب المتعاكس بين المدة والطاقة والشعور .

وأنا امسك الآن عن الاسترسال في هذه الخواطر الراقصة حول الرقص ، وحسبي أني هتكت لكم النقاب عن وجه هذا الفن الذي لا يمكن ان نزجي به اوقات الفراغ ، ولا يجوز ان نعتبره قالباً نصب فيه المشاهد الممتعة للاعين التي تتأمله او الجسوم التي تمارسه . فانما الرقص قصيدة

شعرية من قصائد العمل الفني عند الاحياء من الناس ، ينهض بالخصائص الاصيلة لهذا العمل ، ويتخذ من الجسد وسيلة لابراز قواه الفائضة وممكناته الحيوية على نحو ما يفعل الشاعر في استخدام ملكاته وتذليل مصاعبه . فما هو المجاز في الشعر إن لم يكن ضرباً من دوران الخواطر في حلقة الصور ؟ وما هي الاخيلة والاوزان ان لم تكن مظهراً للغة في قدرتها على سلخنا من العالم الجاري من حولنا ، لتؤلف انما هي بدورها عالماً آخر هو مسرح الرقص الروحي لاحلامنا وعواطفنا ؟

ان موسيقى الشعر تأخذ بيد نفوسنا الحبيسة المظلمة لتقذف بها في سبحات صوفية طويلة الامد عميقة الغور ما تفتأ معها ذاهلة سكرى من فرط الانطلاق وخمار الجرس .

ها أنا ذا أسلمكم بعد هذا الكلام الطويل الى الفن الخالص والشعلة اللاهبة ، الى « مدام أرجنتينا » . ولست اعرف شوقاً يهزني الى متعة الحس وبهجة الجمال ، كالشوق الى رقص هذه الاسبانية التي امتازت من أترابها بأسلوب قوي

قوامه الذكاء التحليلي والتسامي المبدع والجهد الدائب .
فانا راضٍ كل الرضا عن رقصها ، معجب كل الاعجاب
بفنها ، ككل امرىء يرجو ان يرضى عن نفسه
ويعجب بعمله .

غوستاف لانسون

دكتور في الآداب

أخص ما يميز أدب لانسون « التقرير » . فقد كان أستاذ القيصر نقولا الثاني منذ عام ١٨٨٦ ، ثم عاد الى فرنسا ليدرس في مدارس الليسه اول الامر ثم في دار المعلمين العالية بباريز «١٩١٩» . فلما كان عام ١٩٢٧ ، انتقل الى كلية الآداب في السوربون كأستاذ للأدب الفرنسي ، ومات وهو في منصبه الجامعي باستحقاق الرتبة عام ١٩٣٤ . اما مؤلفاته فكثيرة وأهمها : تاريخ الادب الفرنسي وهو في اكثر من ستمائة صفحة ، قرأناه من الجلدة الى الجلدة ، ونصائح في فن الكتابة ، وطرق تأريخ الادب ، وابتكارات لامارتين . ومما يروى عن الدكتور لانسون انه زهد في عضوية الاكاديمية الفرنسية ، ولكن المعجبين به ألحوا عليه بقبول عضوية رابطة الشرف فقبلها عام ١٩٢٤

– ١ –

العاطفة في الأدب

— ١ —

تعوق العقلَ عن التأمل والتفكير أمور شتى وعلل مختلفة ، أهمها في نظرنا هذا الاعتقاد السائد ان نشاط الذهن يخمد العاطفة المشبوبة ، ويقتل النزوة الحية ، ويحبس القلب الخفاق . فلا اماني ترف ، ولا احلام تطيف ، ولا ذكرى تلوح ، ولا هوىً يبوح ! . وانما العقل كله قد نأى عن ركدة الخمود ، واستيقظ من نوم الجمود . رأي في اثر رأي ، وخاطر يتلوه خاطر ، ومقدمة تسوق الى نتيجة ، وتحليل يسلم الى استنباط ! انه ليحسن بالاديب المبين ان يخنق صوت الفكر ويطمس معالمه ، ثم لا ينطق سوى قلبه ، ولا يترجم عن غير لبه . اذن لخلت لغته من ألوان الزينة المصطنعة ، وصفا أسلوبه من أصباغ البهرجة الكاذبة ، ثم تراءت النفس على سجيتها الموهوبة من خلال السطور ، وبرزت نقية رائعة من بين سواد المداد !

هذه دعوى — على جمالها وروعتها — عاثرة خاسرة .

ووجه الخطل فيها ان القلب لا يستغني عن العقل ولا يستطيع ان ينكره في حال من الاحوال . فأن قوى النفس متحدة مشتبكة ، يتصل بعضها ببعض ، وتتداخل احداها في جارتها الاخرى ، ويندس الضعيف منها في القوي ، والكامن في البارز ، والوديع في المتمرد . وأما القلب الكبير تراه عند من له عقل كبير ، والطلعة البصير يفطن الى ألطف ما يضطرب في الفؤاد من الميول والنزعات ، ويشعر بأدق العواطف واهدأ الاحاسيس . وعلى قدر ما يكون العقل من الثراء والخصب ، او الفقر والجدب ، يكون القلب عظيماً رفيعاً او وضيعاً خسيساً ! هؤلاء القديسون الصالحون ورجال البر والاحسان ، هم اصحاب عقول نيرة تناهض عقول العباقرة والمفكرين ، وقد يكون فيهم سذج غافلون فما يعني هذا أنهم حيوانات هائمة سائمة ، ولئن كانت محبة الله وبر عباده استجابة روحانية لنوازع القلب ومطالب الشعور ، فأن تأسيس المدارس والاندية وبناء المستشفيات والملاجىء ، صورة من صور المنطق المنظم ، ومظهر من مظاهر الرأي والتدبير .

— ٢ —

يستبد الهوى المبرّح ، ويجور الالم البالغ ، ويطغى الهيجان الثائر ، فتختبط النفس وتهتاج الاعصاب ويغلي الدم ، ثم تنطلق من شفاه العاني همسة محزونة ، او صرخة يائسة ، او قولة قوية جليلة تجري خالدة على وجه الدهر ، وتذهب في الناس مثلاً سائراً وحكمة مضروبة ! أما النقد الحديث فما يحفل بهذا النوع من الكلام البليغ الجامع ، ولا يمنحه التعظيم والاجلال مثلما تمنحه الامم والاجيال ، وانما يراه من عمل الراوي المؤرخ الذي سرده لزملائه المعاصرين ولمن يليهم الى يومنا هذا ، ويستنكر نسبته الى القائل الحساس . والمؤرخ — بخلاف الصحافي — يملي على الحادث رأيه ومذهبه ، ويسرد الرواية على نحوه وأسلوبه ، ويسكب الكلم في قالبه ومثاله

ويغضب الرجل فيحول باطنه ، ويختل ظاهره ، ويضطرب احساسه ، ثم تستبين طبيعته الصامتة كما خلقها الله ، وكونتها الوراثة ، ووجهتها البيئة ! يقذف الكلمة من فيه ، فاذا هي كالسيف مضاء ونقاوة ، واذا هي جماع فطرته النائمة ،

وعادته الراسخة ، وغريزته الكامنة !

لغة القلب آهة او أنة او نداء او عويل ، ولكنه يكف عن التوجع والحنين حين تجتاحه موجة من الحب القوي او الالم المميت . وقد قيل ان الهوى يعمي ويصم ! فمن يفرق بين القلب العقل ثم يروز الاول ويهمل الثاني ، لزمه الايجاز في البيان ، والاقتضاب في الكلام . ذلك بأن المبين اذ يسمي شكواه ويدل على بلواه انما يعلن جميع ما يكنه فؤاده من الخلجات ، ويذكر كل ما يحز نفسه من اللواعج ، ثم لا يرى شيئاً يتخذه مادة للكتابة ومفتاحاً للحديث والافاضة! تمثل محباً ملأ الحب جوانحه ، وتغلغل في حناياه واحشائه ، واختلط بلحمه ودمه ، شاء ان يصور هيامه في اسهاب وتفصيل ، فلتجدنه أحرص الناس على الايجاز في التصوير ، وأقلهم تبسطاً في الحديث ، فما يكاد يسجل هذه الجملة المألوفة المبتذلة : « إني أحبك » حتى يعيد لفظها ويكرر معناها . سطران لاغير ، يخطهما المحب ثم يرمي القلم في انكماش ووجوم . . !

ونلاحظ ان النفس الراضية المطمئنة قد تلتوي على الكاتب ،

ونجهده عند الاعراب والتبيين ، وتستهلك ملكاته النابهة وادواته القوية . اما الميول المصطدمة والاهواء المتعاكسة فهي تظهر في يسر وسهولة ، ولا تستلزم عبقرية عالية او مبيناً كبيراً . ويرجع هذا الى ان النفس الراضية المطمئنة لا تتطلع لغير حاضرها ، ولا ترغب الا في هدوئها وراحتها ، وهي إنما تنطوي على مشاعر حلوة صافية لا سبيل الى الخلوص اليها بلفظ او كلام ، وحسبها من ذاتها ان تستمتع بما تحس ، وتتملى ما تشعر ، وتتذوق ما تحلم ! ولكن الميول والاهواء اذ ترتطم وتتعاكس ، تثير ألف خاطرة ولاعجة ، من ندامة على الماضي ، وأمل في المستقبل ، وخوف من المصير ، وكلها هواجس يفطن لها الكاتب الصغير ، بله الالمعي القدير ، ثم يبرزها مخطوطة واضحة على الطرس . . .

مظهر الالم صوت ملجلج ووجه أغبر ، ورعشة في اليد ودمعة في المحجر . فالاعراب عنه بلفظ قريب لا لبس فيه ولا غموض انما يحتاج الى عقل خصب يتأمل وجه الالم الذي يتحسسه ويدرك قيمته وأثره ، ويعرف اين يتحد مع غيره من العواطف ومتى يختلف ، ثم يعرضه تاماً صحيحاً

غير منقوص ولا مشوه . وكلما كان التأمل العقلي كثيفاً نافذاً كان الألم أكثر وضوحاً وأبهر لوناً وادق تعبيراً

تلكم صفحات الادب الباكي ، فاقرأوها بامعان ، وفتشوا فيها عن القلب المنفطر ، وتبينوا النفس المعذبة ، ألستم توافقوننا على ان الاديب إنما اتخذ العقل مبضعاً يشق به مطاوي القلب ، ويسبر غور الضلوع ، وينفذ الى حقيقة البكاء ومصدر اللوعة ؟

لقد حفظ التاريخ القديم ، فيما حفظ في ذاكرته الواعية ، رسائل طريفة انحدرت الينا كاملة من « شيشرون » و « مدام سيفينيه » وهي رسائل تفيض بالشكوى وتنزى يأساً والماً . كشف فيها الخطيب الروماني عن الحب الابوي حين ماتت ابنته وذهبت الى حيث لا رجعة لها ، وأبانت المركيزة الفرنسية كيف تتوجع الام الرؤوم حين تزوج ابنتها الى الديار النائية والغربة الطويلة ! إن الآباء والامهات ليبكون ابداً اولادهم وبناتهم عند الموت ووقت الفراق ، ولكنهم لا يستطيعون وصف ما تكابد مهجهم من هموم وأشجان . وليس الذنب

في ذلك ذنب قلوبهم المترعة المفعمة ، وانما هو ذنب عقولهم القاحلة ، وألسنتهم البكيئة ، وأقلامهم الجامدة !

والطريف في هذا الباب ما يزعمه « هوغو » من ان الشاعر مصلح عظيم ونبي كريم ، أرسله الله لقومه هادياً الى مواطن الحرية والجمال والحب . وقد دفع هوغو الى هـذا الرأي الارستقراطي غروره المسلكي ، وحماسه الوطني ، وتطرفه المعهود ، وخياله الواثب . والحق ان الشاعر رجل مثلي ومثلك ، يرى ما نرى ، ويشعر بما نشعر ، وانما يمتاز بنوع من الامتياز لا ينهض به الى صف المصلحين ولا يرفعه الى مقام الانبياء ــ يمتاز من غيره من الناس بهذا العقـل الحاصي المسجل الذي يقـدر على الابانة عمـا يرى ويشعر ، ويعرف كيف يصور ما يتجاذبه من المنازع والاهواء .

فالتأمل الذهني ، كما ترون ، ضرورة من ضرورات البيان ، فلا تظهر الخلجة النفسية على النحو الذي قذفتها الفطرة ودفعها التطور واكتنفتها الحياة ، الا بالمراقبة الباطنية العميقة . والممعود انما ينبغي ان يكون على شيء من العلم بمواقـع

الاعضاء حتى يصف للطبيب المرض الذي ينتابه والداء الذي يفوشه ، ولكن الطفل اذ يتألم لا يفقه ألمه ولا يعلنه الا في إبهام : يصرخ ويبكي ، وهذا كل ما عنده من وسائل الاعلان وادوات الافصاح

ان الادباء المحدثين ممن نقرأ لهم ونستمع لاحاديثهم في الصباح وفي المساء ، يلتزمون البساطة في اللفظ والمعنى ثم ينحدرون الى النفس المتأخرة الابتدائية التي لم يصقلها العلم ولم تهذبها المدنية ، فينتزعون منها الشعور الفطير والعاطفة الساذجة ، وهم موقنون ان الاخلاص في الادب او الصدق في التعبير لا يكون الا حيث يكون الطفل الصغير او الجاهل الامي موضوع الحديث ومدار البيان . ولست أعرف انحرافاً عن الحق وخللاً في المنطق يشبه ذاك الانحراف وهذا الخلل ، فأن الثقافة العلمية لن تفسد النفس والشعور ، ولن تمنعهما عن البوح والظهور

وقد كان المؤلفون اليونان يستصرخون ابطال رواياتهم ويستدرون عبرتهم ، ويتعمدون إيلامهم . وكانوا يسهبون في وصف الالم ، ويذكرون بواعثه ونتائجه ، ويتغلغلون الى

كنهه وحقيقته . فهم فنانون حقاً يلتمسون مواطن الجمال المنسجم ، وينشرون مواضع الحقيقة الفنية ، أصحاب الذوق ، أقوياء الحواس ، يجمعون الى تبدل اللون وتقلص العضلات واختلال الحركات تدفق الالم الداخلي ، وأفاعيله النفسية ، واثره في الرؤوس والقلوب . وقد ترسم شكسبير خطاهم ونهج سبيلهم ، فكان يصور أوضاع الجسد ثم ينفذ الى الالم ذاته ، ويربط بين اضطراب الحواس اللدنة ، وهيجان النفس الباطنة

ونحسب الان اننا كشفنا عن الصلة المتينة بين القلب والعقل ، ونبهنا الى خطر التفريق بينهما ، والى قلة الابداع والانتاج عند إهمال التأمل والتفكير . فأن كثيراً من الناس ليحسون اقوى الاحساس ، ويشعرون بأشد الشعور ، ولكنهم لا يعبرون عن احساسهم وشعورهم ، لانهم ضعاف العقول ضئال التفكير ، واغلب الظن ان المبين لو راض عقله وصقل ذهنه بالتأمل الدائب الملح لوفق في رسالته حسن التوفيق ، ومضى الى غايته كما يرجو ويرجو له النقاد والباحثون

-٣-

ما دام الاديب أداة تصوير واعية مرهفة تلتقط مايتساقط عليها من اشعة الوجود ، وألوان الطبيعة ، وصور الحياة ، فلن يحس بالفراغ يملأ ذاته ، ولا بالوحشة تحف نفسه وكيانه، وهو ابداً يرقب جيشان عاطفته ، ويرصد خفوق قلبه ، ثم يستمتع بهواه وشعوره ، والاستمتاع هنا معناه استيقاف الحياة قبل ان تطوى ، والاحساس بها احساساً « مضاعفاً » قوياً . وفي النفس نزوات مبهمة خافتة ، يبصرها الاديب الصناع ثم ينشرها عارية واضحة تكاد من فرط ظهورها تطفر لعين الرائي المشاهد

ويعتقد الاستاذ « اميل فاغيه » ان التكلف في البيان شر ما يبلى به الاديب الفنان من العلل والادواء ، وهذا حق لا ريب فيه ، وانما الريب في قول من قال إن مراقبة النفس تقتضي التصنع ، وتؤدي الى التكلف ، لأنها انما تقتل الطبع الموهوب والهمة الفنية والقوة الدافقة . والحق ان المراقبة اذا كانت منظمة متصلة توسع اطار الاحساس ،

وتوضح بداءة الشعور ، وتنهض بالقريحة الخابية الهامدة .
فلقد تستكين العاطفة ويخمد اوارها ، وتهدأ حدتها ويبرد لهبها ، وليس هذا مما نسميه النضوب والامحال ، وانما هو أثر من آثار الاعياء والنصب الشديد ، كأنما العاطفة المكدودة تنام في جو مظلم ساكن ، وكأنما القريحة المتعبة تقف عن الشعور فترة غافلة من الزمان ! وفي هذه الحال ، قد يأخذ الاديب نفسه بوصف منظر او تبيان خلجة ، فيقف مكتوف اليدين ، متبلد الحس ، جامد القلم

فالمراقبة انما توقظ العاطفة النائمة او هي تهيجها كلما غفت ، ومن العجب ان تكون سبيلاً الى التكلف المرذول والتصنع الممقوت ، وعهدنا بكبار الشعراء أمثال لا فونتين ولامارتين أنهم على هيامهم بالتنقيح والمطالعة والتأمل ، كانوا أطلق الشعراء لساناً ، وأرقهم بياناً ، وأسلسهم لفظاً

ومن الادباء من لايستوحي نفسه ، ولا يترجم عن طبعه وانما يستقي من ذاكرته ومحفوظاته وقراءته ، وهؤلاء يكتبون في غير جدوى ولا طائل ، والمعروف المتداول انهم

يأتون غالباً بتشابيه مستعارة ، وكنايات معادة ، وصور مبتذلة لا تعبر عن شخصية ولا تنم عن جديد مبتدع . وانما الرجوع الى الطبع دون الذاكرة الحافظة هو مصدر الادب الخالد والابتكار القويم . وليس من شك في ان التكلف يضمحل ويتزايل أثره كلما رجع الفنان الى نفسه ، وعول على طبعه ، واستقى من عبقريته . ولقد يجمل بالمبين ان يتناول ما تمده القريحة في الوهلة الاولى واللمحة الخفيفة ، وألا يصطنع شعوراً لا يتردد في أطواء نفسه بل يأخذ ماجادت به العاطفة من غير جهد ولا عناء!

وكلمة « انا » وما يُشتق منها قد تكون سبباً مباشراً من أسباب التكلف البياني ، لانها تتصف بالشمول وتجمع الشتات ، كأنما هي عنوان النفس ورمز العاطفة . والسبيل الذي ينبغي ان يسلكه الادب الرفيع هوان يحمل كل لفظ من الفاظ اللغة جزءاً من النفس وقسماً من العاطفة ، اما « انا » فما ينبغي ان تكون الا عيناً تتفجر منها الافكار والمعاني، وتصدر عنها الاساليب واللغات ، وتصب فيها فروع الكلام واغراض البيان

فأذا كان في هذا عسر ومشقة ، فان الرياضة والمران حقيقان بأن يذللا كل شيء . وكما يخلق اللاعب المرتاض لجسده الحواجز ليجتازها ، والجبال ليتسلقها ، والوديان ليهبط اليها ، كذلك يخلق المبين لنفسه طرائق ملتوية ليمارسها ، مهما تكن تلك الطرائق وهمية خيالية ، مادامت الغاية محمودة تبرر الواسطة ثم تخضعها بالتجربة والعادة

— ٤ —

كانت العصور السالفة تقدم للمبين مواد التفكير الصحيح ، وأسباب العاطفة الحية ، وادوات الكتابة الخالدة . وكانت الظروف والاحوال تنشيء المرء إنشاء قوياً ، وتمده لحياة شديدة فيها من الجد والنشاط ، ومن الابداع والانتاج ، ما يزري بحياتنا الحاضرة الراكدة ، ويستخف بعيشنا اللاهي الهازل !

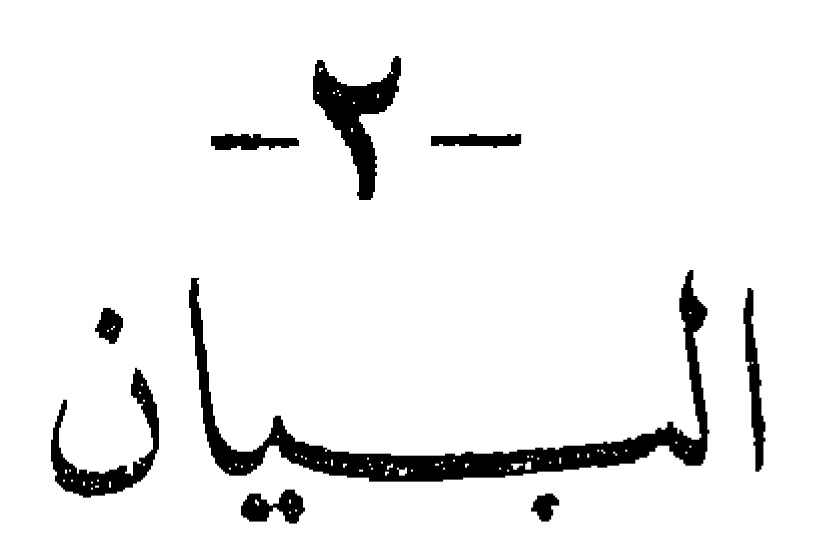
كان الطالب اذا نال الشهادة وخرج من المعهد لا يرى بضاعته من العلم الا قليلة موجزة ، ولا يعتقد في نفسه الا القصور والجهل ، فما يزال يقرأ في الكتب والاسفار ، ويتلقى عمن هو أكبر منه سناً وأوسع تجربة ، حتى يريش ويهرم.

فهو ابداً في دراسة دائبة ، واختبار متصل . ولم يكن مقياس النبوغ سعة القراءة والرواية ، وانما هو الفهم السليم والنظرة الصائبة . وكانت الآداب على اختلافها دروباً تنحدر كلها به الى النفس الانسانية ، يطالع منها ما يطالع ثم يجمع المتشابه ويفرز المتشابك ، ويستعمل النابه ويعني بالضعيف الخامل . اما القصة فها كانت تتلى للتسلي والمفاكهة او لتزجية الوقت والفراغ ، وهي التي قد تبلغ عشرات المجلدات مخطوطة ومطبوعة ، وتلاقي من الرواج والذيوع ما يستدعي الدهشة والاكبار ! هذا الى تراجم المؤرخين ، وتأملات الحكماء ، ومواعظ الزهاد والخطباء ، مما يوقظ العاطفة والشعور ، ويربي ملكة الانتباه والتفكير . وفي حضرة المرأة والطفل الناشىء كانت تثار في غير تحرج ولا تقية أعوص مسائل الدين والاخلاق والسياسة والاقتصاد . وكان العرف الديني والاعتراف الكهنوتي وحب الفضيلة ، يقلق المؤمن ويقض مضجعه ، ويضطره الى مراقبة نفسه والى التعبير عن خطراته ونياته . ومن ثم كانت النساء اللواتي لم يتعلمن سوى الادعية والصلوات ، وكان الشباب الذين لم يتفقهوا

غير المبارزة والرقص – كان هؤلاء جميعاً يعبرون عن مرادهم تعبيراً حسناً ، ويفكرون تفكيراً صحيحاً . فكانت الكتابة عندهم كالمحادثة والحوار ، ينحونها الجهد والاناة ، ويقصدونهما بقلوبهم وعقولهم مجتمعة متساندة

اما اليوم فالذاكرة الحافظة هي غاية الغايات ، يكدسون فيها ضروب العلوم والفنون على مدىً ضيق من الزمن كما يكدسون في المركب أصناف البضائع على غير نظام ولا تؤدة ، لتقلها الى المرفأ سالمة لا اكثر ولا أقل . والمرفأ هنا هو الفحص الذي ينتهي عنده الدرس ، وينسى الطالب بعده ما اكتسب من العلوم . وذلك بأنه تعلم منفعلاً لا فاعلاً ، تعلم كما الآلة من غير وعي ولا تفهم ، فالبرامج واسعة ، والوقت قصير ، والتمثيل منعدم ، والهضم سيء

وجملة القول ان التربية الحديثة لا تتلاءم مع شرائط الصحة العقلية ، ولا تهيىء العاطفة للفن والكتابة . وما دام الخروج على البيئة مستحيلاً ، فأن تهذيب الشعور وتنمية التفكير مطلبان جليلان ينبغي العناية بامرهما



-٢-

البيان

— ١ —

يذهب « جوبير » فيما يذهب إليه من ألوان النقد الى ان الالفاظ لا تقصر عن أسباب المعاني ، ولكن المعاني هي التي تقصر عن أسباب الالفاظ . فما يكاد المعنى يبلغ طور الكمال ودرجة التمام حتى ينبثق اللفظ المصطفى المختار الذي يشف عنه فيكسوه ويمثله . وهذا صحيح كل الصحة ، وما فيه ادنى ريب ، ولكنه ، لو علمت ، لا يدل على أمر كبير ، ولا يسفر عن رأي خطير . فما دمنا لا نستطيع ان نفكر الا بواسطة الالفاظ ، بل ما دمنا لا نستطيع ان نفكر الا الفاظاً تتفاوت فيما بينها من حيث الوضوح والتمثيل ، فان بلوغ المعنى طور الكمال وإيصاله درجة التمام يعني التفكير في اللفظة التي تكشف عنه بكامله ، وتنطبق عليه بحدوده . فالقولان على هذا مترادفان ينوب أحدهما عن أخيه ويمثله في الاتجاه أو يساويه في الغاية .

والصعوبة كل الصعوبة تبـدو في الوصول الى هذه المرحـلة الاخيرة حين يكتمل المعنى في اللفظة التي تخصه هو من دون غيره ، والتي ينتهي عندهـا بنفسه .

الحق ان العبارة هي جهد المبين ، وغاية الابداع ، ونتـاج العبقرية . وأول ما يقوم به العقل في هذا السبيل ، هو الطواف في كافة جوانب الموضوع الذي يبحثه ، والسؤال عما يعرف من طريق التجربة التي قام بها من نفسه او من غيره . ويثري العقل على هذا أيما إثراء ، فيدخر جملة صالحة من الخواطر المبهمـة التي تغيم ولا تصفو ، ويختزن جمهوراً كبيراً من المعاني المركبة التي تنعقد ولا تستقر ، وما يكاد يقيس المسافة التي يجب ان يخطوها او يقدر الموضوع الذي يريد ان يجلوه ، حتى يوزع هـذه الخواطر المدخرة والمعـاني المختزنة ، وقد اتضحت وتحـددت ودقت بمجرد استعدادهـا للعمل وظهورها في النور .

والى هنا كان عمل العقل خاصاً به لا يشركه في ذلك شريك ولا تنازعه غاية . ففكر لحسابه ، وقـدر بألفاظه ، وأبان بجمله . كانت « لغته » طائرة موجزة كالايماءة ، مجهولة

غريبة كالرؤيا ، لا يعرف القصد منها الا حلتها ، ولا يميز المعنى فيها الا نقدتها . فلو ان احدنا جرّد من نفسه الذاتيـة شخصاً معنوياً يراقب مجرى خواطره الباطنة حين يمضي في العزلة ويفزع الى الوحـدة ، لرأى اننا لا نفكر على نحو ما يفكر الناس ، ولا نجري في الطريق المستوية المألوفة ، فان سرعة المفهوم وومضة الخاطر تخلقان في كل لحظة من لحظات التفكير لغة جديدة رمزية مختزلة هيروغليفية ، تأخـذ الالفاظ فيهـا معاني ملتويةً شاذة متأبدة ، فتأتلف حسب أهواء الذاكرة العابثة ، وتطّرد على غير الصرف الذي نعرفـه ، والنحو الذي نعربه ، والبيان الذي نتذوقه . . تلك لغـة طائفة لم تسترح ، وألفاظ محرفة لم تستقم ، ولو اننا انتزعنـا جانباً من هـذه الالفاظ وتلك اللغة ، ورحنا نمعن النظر فيه لوحده ، لرأينـا انفسنا على حالها المضطربة الغامضة ، وما درينا أي شيء نقول ولا الى أي امر نشير .

أجل ! الى هنا كان عمل العقل خاصـاً به ، فتلك خطوته الاولى في سبيل البيان يقوم بها من نفسـه ولنفسه ، ويجيء الان دور العمل للآخرين : فانما ينبغي ان نفكر لحسابهم ،

ونقدر بالفاظهم ، ونبين بجملهم . وما يتم كل هذا الا بقلب اللغة الخاصة الى لغة عامة ، والا باكتساء الخواطر والعواطف اثواباً تقبيها كل العقول وتهش لها كل النفوس . والامر الى ذلك معروف ميسور : نضع « عبارات » واضحة يفهمها الناس مكان « العلامات » التي كانت من قبل عنواناً للفكرة اكثر مما تكون مرآة لها ، وفي ذلك تنتهي مرحلة الابداع الفكري ، ويبدأ عمل الاسلوب الانشائي . فالاشياء التي تتشابه تقترب من بعضها وتلتصق بحدودها وتدق في مفهومها ، والالفاظ التي كانت تكسوها في دنيا العقل تتوارى لتأخذ مكانها ألفاظ جديدة أقدرُ على الابانة من سابقاتها ، وأسطع منها نوراً ، وأشد تصويراً . والملحوظ ان الفكرة اذا تبدل لفظها وشكلها تبدل هيكلها وكيانها ، والى ان يتم هذا التبديل المزدوج تجري الفكرة واللفظة معاً على قدم المساواة نحو أسباب الكمال ، وان تكون الفكرة كاملة واللفظة تامة الا حين يخرجها الكاتب الى حيز التنفيذ ، ويسجلها على بياض القرطاس ، لأن الرأي الذي لم يُكتب انما هو رأي « بالقوة » من دون « الفعل » يبقى أبداً تحت رحمة الاحتمال ونسبة الامكان ، وان

يستقر في موضعه المخصص له ، ويأخذ وضعه المحدد به ، الا بالكتابة .

ان اللفظة مقياس الفكرة ، فمن كتب خواطره فانما يتمم خلقها ، وان شئت فقل إن الرأي لن يكتمل الا حين يبرز مقروءاً على الورق ، ويرف مشكولاً بالمداد .

يقول الناقد « هيبوليت تين » في رسالته عن « لافونتين » :

« . . . والحق ان شأن الالفاظ غريب ! فما طبيعتها قبل كل شيء ؟ ايها قادرة على التصوير ، وايها عاجزة ؟ بأية أعجوبة استطاعت أحرف أربعة ان تدل على حمار ، وأحرف ثلاثة على كلب ؟ كيف السبيل الى اختيارها واصطفائها ، والى تزاوجها واطرادها ، بحيث تكشف عن الاشياء والاوضاع والمعاني ؟

الاصل في الالفاظ الحياة ، أعني انها كانت تزخر بالشعور وتموج من الفكر ، يوم نشأت لاول مرة في الوجود ، وجرت على لسان رجل الكهف ، يشير بها الى ما يحيط به ، ويضع فيها العواطف والخواطر التي تدور بخلده ونفسه . بل لقد كانت قديماً من الحياة بحيث تضارع اهتزاز اوتار الكمان الشجي ،

او تشبه نمو برعم الزهر الطرير . ذلك أنها تفجرت اول ما تفجرت من قلب الطبيعة وروح الاشياء ، فحاكت الحيوان وقلدت الانسان حين يبتسم أو يرق أو يعبس ، وحين يزوي بأنفه ويتنفس بصدره ويتغنى بحنجرته . وما تزال على حالها حتى الساعة ، بالرغم من مرور الزمن على مولدها ، و كرور الايام على استعمالها ، تحمل الآن موكب التقليد للطبيعة ، ومعالم المحاكاة للاشياء . فما تكاد تضطرب على طرف اللسان او تقطر من شق القلم ، حتى تعود الى وظيفتها الاولى من الحياة ، وتكشف عن معناها الاصيل

« ياعجباً من اللفظة الواحدة كيف تخلق في نفس المرء عالماً من الاحساس ودنيا من الصور ؟ أفما تراها بربك اذا أحسن اصطفاؤها وأُنزلت موضعها من العبارة ، تعمل عمل السحر في الخيال ، وتقوم مقام النظر الشخصي الى الاشكال والالوان ؟ ان العبارة الانشائية لتبدو جذوة من نار متأججة اذا اطردت الالفاظ فيها على هذا النحو من حسن الاختيار ودقة المكان . انها لا شك تلهب الخيال بقوة إحراقها ، وتصور المعاني على وضح نورها . وتنحصر عبقرية الشاعر في تنسيق الكلم وفن

الالفاظ ، لان المعنى اذا قام في نفسه ، والشيء اذا تبدت صورته ، لا يتطلبان اللفظة « الصادقة » فحسب ، وانما يتطلبان اللفظة الموهوبة « الطبيعية » ، أعني العبارة التي تنفرج عن نفسها وتنبثق من ذاتها ساعة يقوم المعنى في النفس ، وتبدو صورة الشيء . »

— ٢ —

« تربو الالفاظ لخصوبتها على المعاني الى حد بعيد ، وتفي رونتها بكل حاجة من حاجات الاداء والاعراب ، فلا تقوم في النفس خلجة منها استسرت ، ولا خطرة منها استدقت ، الا وتقع من فورها على الكلمة القوية التي تنفض جملة حالها نفض تصوير واحاطة ، ثم تمشي في اطوائها كما تمشي الروح في اطواء الجسد لا تبرح مجاورة لها ، عاملة معها ، حتى تصير الى نوع مادتها على تعاطف والتحام . ذلك ان للغة من القدرة على حمل اجزاء النفس وابعاض الشعور ما تقوى معه على كشف الدقيق من خافيات الخواطر ، والسريع من حركات العواطف . حتى في الحالات التي يمحى منها العقل المراقب

والحس المحلل لا تعدم المبهمات من الآراء والاهواء تعابير مبينةً قوية على البيان قوة تدعو الى العجب والدهشة ، كأن الكلمات تنهض بالمعقول الذى لا يدرك ، وتحدد اللانهاية التي لاتحد . فما كاد « باسكال » يمعن في سعة الكون ، ويذهب خياله من فرط التصور ، حتى أمدته اللغة بعلامات قادرة على التمثيل والبيان فقال : « الكون كرة ليس لها حدود ، مركزها في كل مكان ، ومحيطها فى الفضاء » . وهذه عبارة كما ترى خالية خاوية ، ولكنها مع ذلك واضحة مفهومة ، فهي ضرب من المعادلة الجبرية التي تخضع مالا ينتهي لقواعد الذي ينتهي ، والتى تقيس مالا يقاس بهذا التأليف العارض بين شتى العبارات الايجابية والسلبية .

كيف استطاعت اللغة ان تظفر بالمرونة البيانية على هذا المقياس الواسع ؟ . الافكار كثيرة لا حصر لها ، ولكن عدد الكلمات محدود . فما في معجم « الاكاديمية الفرنسية » اكثر من سبعة وعشرين ألفاً من الالفاظ ، وهذا ما يدعو الى التساؤل عن مأتى الطاقة اللغوية في الاداء ، لان المعاني من ذوات التعادل الثابت في الكلمة الواحدة من كلمات المعجم ضئيلة

ضآلة واضحة لا تفي بالمراد ولا تلتئم مع المظهر الخصب للثروة الادبية في لغة الامة .

جاءت مرونة اللغة من عملية بسيطة معقدة في آن واحد : جاءت من « التأليف » بين الالفاظ والالفاظ ! لقد تحمل اللفظة معناها الضيق الذي يدل عليه المعجم ، وتصطبغ الكلمة باللون الذي يسطع بين الاحرف ، فما تجتمع اللفظة الى اللفظة ، وتنتظم الكلمة مع الكلمة ، حتى تنبثق من الاجتماع والانتظام سلسلة من الاضواء المتعاكسة المتجاوبة التي تكشف المعنى او المعاني التي يتطلبها الكاتب من وراء الكلام . وبهذا التركيب وحده تنغمر الثغرات التي خلقها المعجم بين حدود الالفاظ ، وتنجلي اللغة عن اللدونة التي لا حد لها في عرض المتداخل الدقيق من الخوالج والخواطر . وسر البيان من اوله الى آخره ، على روعته وتساميه ، عائد الى نوع المزاوجة بين الكلمات مما هو متروك من قديم الزمان للحاسة الفنية والملكة الموهوبة

ان مفردات اللغة في المعاجم كالحجارة في مقالع الارض ، من يأخذها على حجمها الناشز ، ووزنها الجامد ثم يضعها كما يضع البناء حجارته بعضها الى جانب بعض على طبقات مرصوفة

مرصوصة ، لا يكتب بغير القلم الشحيح البطيء الثقيل ، وبيانه محروم من الطراءة والرشاقة والدقة . ذلك ان حرارة الاسلوب لا تستوي على الوجه الساطع الا بعبقرية التأليف بين الالفاظ من حيث نطالع المرونة و اللدونة في ثناياها . فمن يفوته هذا بالفطرة الا صيلة او بالدرس الصابر ، يفوته سر هذه العملية الكيماوية التي تمزج الكلمات مزجاً يبدل من لونها وعطرها وصوتها وطبيعتها ، ويظفر بالوحدة المتجانسة البسيطة التي تأخذ العناصر المشتركة في انشائها خصائص حديثة ليست تمت بنسب الى القديم الذي كان لها في بطون المعاجم .

وماذا في بطون المعاجم غير الكلمات في معناها الحقيقي وشكلها العام؟ ان علماء الحيوان والنبات يصنفون الانواع حسب الخصائص المشتركة فيما بين الافراد ، ثم يهملون ماقد يكون الى جانب هذه الخصائص المشتركة من خصائص اخرى كثيرة يتفرد بها كل عضو من اعضاء النوع الواحد من مثل اللون والطبع وما الى هذا من مزايا هامة . هكذا عالم اللغة لا يحدد من معنى الكلمة او معانيها الا الجانب

العام مما تواضع الكتاب على منحه واثباته فيما يكتبون ، والى هذا ينبغي ان تضاف الى الكلمة عند التحرير قيم اخرى تنشأ من مجرد الدخول في جملة من جمل الانشاء والتركيب .

والعالم اللغوي في هذا كالعالم الطبيعي مهما استقرأ عدد الخصائص ، وتقرّى مواضع الامتياز ، فهو لابد واقف عند حد من الحدود العامة التي تجمع شيئاً وتمنع اشياء . ومن الواضح الا يفعل العالم اللغوي غير هذا ، لان مرونة الكلمة وفعاليتها المعنوية شيئان لا يمكن ان يجتمعا في بطون المعاجم ، واذا اجتمعا فلن يكون هنالك غير الفوضى في المفهوم والاضطراب في المعنى ، مما تضيع معه رسوم اللغة الواضحة المستعملة .

لئن كانت الكلمة جامدة المعنى في المعجم ، فلن تكون كذلك في البيان . فقد تضمر خصائصها او تمحى معانيها او تتسع آفاقها او تسطع مزاياها ، بل لقد تبدل الكلمة من حقيقة الشيء الذي تصوره تبديلاً كبيراً ، فتغير من شكله او تضع من شأنه او تعظم من قدره حسبما يرتضي المبين عند البيان .

وكل هذا واقـع تحت اقلام الادباء في كل لغة من لغـات الناس . اشد ما نذكر اسم « الله » في كل يوم ، فلا نفكر فيه تفكيراً سريعاً ولا تفكيراً عميقـاً ، فما يكاد « ماسيون » يقول : « ان الله وحده عظيم » حتى يثب اسم الله للاذهان كما هو على جماله وجلاله في القلوب . واشد ما نرى « السراج » يتوهج في الليل ، فلا نمنحه معنى ولا إمعاناً ، فما يكاد « جوديل » المحتضر يصرخ في وجه المليك الذي خدمه وما غذاه : « ان من يستعمل السراج فلا اقل من ان يضع فيه شيئاً من الزيت » . . وما يكاد « لكونت دي ليل » يقول من قصيدة له : « القمر الشاحب وهو يضيء العراء يضطرب محزوناً كما يضطرب السراج الكئيب » . . وما يكاد « باسكال » يدعو الانسان الى النظر في الشمس : « هذا الضوء الساطع في الفضاء كالسراج الخالد ينير جوانب العالم » ـ ما يكاد هؤلاء الكتاب يذكرون « السراج » في هذه الملابسات البيانية ، حتى نتمثله في ثلاثة اجواء من المعاني قد اختلفت فيما بينها لاختلاف الوضع من الكلام المرسل الذي وقع فيه اسم السراج .

أرأيت الى الفرق بين الكلمة الميتـة في المعجم ، والكلمـة

الحية في الادب ؟ ارأيت من اين جاء سر البيان المشرق الخالد على الدهر ؟ اعرفت الان لماذا يهيم المبين باللفظة هياماً لن يعرف مذاقه العالم من علماء اللغة ما دام بين الحجارة محصوراً؟..
ان للكلمات قيماً سواحر لا تأتي الا من المكان والجوار كأنما تتكون مما يغشاها من الاضواء والالوان فتمتد او تتجمع حسبما أعطي لها من الحيز البياني الذي ينمي مرونتها الطبيعية ، ويولد من معناها الاصيل معاني جديدة لم تكن لها من قبل .
وهذا من بعض الاسباب التي تقضي على النظرية القديمة في « الاسلوب النبيل » قضاء مبرماً لا قيام لها أبداً ، لانها تعزو الى الكلمات درجات من الطاقة ثابتة ، وتنكر عليها النفاذ المتماسك والاتصال الحساس مما يحرمها من فضائل ما يحيط بها من الجو البياني الرفاف . وهذا ايضا مما يجعل الشعر الجميل يستمد الفاظه من ألفاظ الناس ، كأن « قبضة من الكلمات العادية قد اجتمعت بشكل عادي » كما يقول « تين » تستطيع ان تهز النفس وتنحدر بها الى الاعماق .
لعلك تعرف لغات تضارع الفرنسية ان لم تزد عليها في اللمعان والاهتزاز ، فاذا أخذتها من المعاجم لم تجد الا ألفاظاً مغبرة

هامدة خرساء لا تبين ، وما يكاد الخيال او البيان يؤلف بينها في سمط من الكلام حتى تشب شبوب النار بعد الهمود، وتتطاير منها شرارات الخواطر قوية لامعة . وفي اللغات الاجنبية كلمات يحول جمالها وموسيقاها من دون الفكر ان يسطع ويبدع ، اما الكلمة الفرنسية فكابية اللون لا تنفض غير المعنى الواضح الذي يجمع رسالات النفس ، ويحقق مطالب الاداء ، وفيها طلائع الانسجام والنور والحرارة ، وباستطاعتها أن تنفرج عن اللهب الطريف المتحرك الوهاج على الرغم من دقة تحديدها الذي لا يفسد ولا يُظلم . وما تمنح الكاتب ثروة من الثروات ، ولكن الكاتب هو الذي يمنحها الثروة ، فما يعتمد عليها الا من احسن قيادتها وظفر بالسيادة عليها . وبعض اللغات تنهض برجالها من الادباء ، وتذهب بمعانيها أشد الخواطر فيهم فقرا ، اما الفرنسية فتدع للضعفاء ضعفهم ثم تسلس للاغنياء القادرين على مسك الزمام من البيان .

-٣-

« أنت الذي تستطيع الصعود وحيداً الى السماء
« فلا تتسلق قلل الجبال
« والى أودية الارض تهبط
« فلا يزلّ بك الجناح ولا تقع ! »

هكذا قال الشاعر « سوللي برودوم » للسنونو الطائر . أرأيت الى « السماء » في الابيات كيف تبعث في كل الاذهان عالماً من الصور لا يتغير : فضاء رحيب عميق ليس له حدود ، ذو لون ازرق كثيف او ابيض كالحليب ، قد غمره شعاع الشمس او غشيته الغيوم ؟ ولكن الالفاظ ليست كلها من طراز السماء ، فما يطير الخيال بجناح فرد كما طار حواليها ، لان الناس يختلفون في فهم اللغة وفي الامزجة والعادات والمهن اختلافاً شديداً لا توحي معه الالفاظ الى اذهانهم صوراً متقاربة أو متجانسة . فقد يقع « البحر » في سمع الفتى الباريزي فاذا هو الفصل البهيج ، والشمس المشرقة ، والحياة الحرة ، والاستحمام الصاخب ، والهواء الطلق ، ثم اللعب في الظهيرة ،

والرقص في الاماسي ، وما الى هذا مما يتصل بأسباب اللهو المترف . وقد يقع في سمع الصياد فاذا هو الصديق الغامض والعدو الواضح ، او هو خبز اليوم وموت الغد ، كأن في طيات امواجه كل حياة هذا البائس العائش من فتات القدر وعبث الزمان . وسنابل القمح يراها الفلاح فيحلم بما قد تدر عليه من مال ، ويراها الرسام فيحلم بما قد ترفده من صور . والارانب لا تحلو الا في عين شاعر كـ « لافونتين » اما الحطاب في الاحراج فما يحبها لما قد تقرض له من اصول الشجر واغصان النبات .

وكذلك تختلف قيم الالفاظ باختلاف الاذهان التي تقع عليها ، كأن بها قوة تولد من المعاني المتباينة ما لا تنطوي عليها من قبل الا بمقدار . وقد جاء هذا التوليد من ان الالفاظ لا تبذل ما فيها من الذخيرة فحسب ، وانما تسحب وراءها الى ذلك طائفة من الافكار كانت مضمرة بالفاظ أخرى . وتمشي الخواطر في أثر الخواطر ، وتتعلق الكلمات بذيل الكلمات ، ثم يتألف من هذا التسلسل الجميل موكب من البيان الرائع ، يتهادى على اساس من التصوّر ، وضوء

من الجرس . ومن هذا التداعي المتكامل تنبثق الثروة الفكرية للالفاظ ، على الرغم من معانيها المحدودة التي تحتفل لها المعاجم ، وتزخر بها اللغة . على ان انواع التداعي اشتات ، فمنه ما كان عاماً يهيج الاذهان الى دنيا من الصور لا تتبدل ، على نحو ما ذكرنا من شأن « السماء » ، ومنه ما كان خاصاً بأناس دون اناس مما يتصل بأحداث الحياة والوان المزاج ، فقصر « التويلري » اذا كان يوحي الى الخاطر تلك الهضاب من الخضرة البهيجة ، وتلك التماثيل المستترة بين الاوراق الكثيفة ، فهو يوحي فوق ذلك صورة القصر العامر او صورة الطلل البالي ، هذا يتمثل قوافل الاضياف المتحدرة الى ابهائه فيما غبر من الزمان ، ومفاتن الايام المسحوبة فيما سلف من التاريخ ، وهذا يتمثل ضروب الالاهي التي تقضت بين خرائبه في ساعات الطفولة والشباب . كذلك « المعركة » تبعث الخواطر الشتيتة عن هولها وتسعر نارها ، ولكن الجنود الذين شهدوا أفاعيلها بانفسهم يضيفون الى صورتها العامة صوراً من الخواطر يجهلها الذين لم يشهدوا اهوال الحروب الا في لوحات المتاحف ورسوم الكتب . ثم ان للجندي من هؤلاء الجنود

ذكريات خاصة عن ألوان الرعب وفنون الاسى مما تهتاج لاجلها نفسه كلما مر للمعركة ذكر في حديث ، او جرى لفظها على باله ، كأن يتمثل دوي قنبلة تنفجر أو أنه جريح يحتضر او نظرة عدو يغلب او ماشابه هذا من مشاهد باكية يتفطر لها قلبه من دون القلوب .

تجر اللفظة وراءها - كما ترى - موكباً من الصور المتداعية على هون . ولو استطعت أن تفصل بين الكلمة ومعناها ، لرأيت أنها لا تسحب في أثرها شيئاً من الخواطر والعواطف وانما تسحب أشتاتاً من الكلمات بفعل العادة والاستعمال . وذلك أن اللفظة اذا ارتبطت بأخرى او دخلت في جملة ، وطال امد هذا الارتباط والدخول ، لا تأتي لوحدها اذا ذُكرت في الذهن أو وردت تحت القلم ، وإنما تأتي مصحوبة بما كان يواكبها من الكلام على الزمان . وقد اعتاد الآباء والاسلاف ان يشدوا الفاظاً الى ألفاظ كلما أرادوا ان يعبروا عما في نفوسهم من الافكار . وينحدر هذا البيان المشدود الى الاعقاب ، ويحفر في اذهانهم ، ويستطيل في خيالهم ، حتى اذا تكلموا كان كلامهم بجمل السلف ، فما ينطقون بلفظة

حتى ينطقوا بالفاظ والفاظ من غير شعور . ومن هنا كان أثر هذه القوالب الجامدة التي تسمى « كليشات » عظيماً قوياً في الاذهان وعلى الالسن والاقلام . ومن هنا ايضاً كان من العسير على بعض الاسماء ان تنفصل عن بعض النعوت أو بعض الافعال مما كان الالتحام بينها شديداً من فرط الاستعمال وطول المصاحبة . والظاهر ان كل لغة من اللغات لا تخلو من امثال هذه « المستحضرات » المهيأة للبيان ، وهي مظهر التحجر اللفظي في علاقات ثابتة لا تتطور . وفي الفرنسية شيء منها لم يسلم من هزء الناقد الكبير « بوالو » !!!

لقد يرسل الكاتب كلامه على جمل قد ارتبطت فيها الالفاظ ارتباطاً خاصاً حسب مقتضيات الاسلوب . ويقرأ القارئون ما خطته يداه ، فاذا هم متأثرون ببيانه ، محاولون اجترار ما أنشأ من العبارات . وقد يسري كثير من تراكيبه على الالسن سرياناً يختلف قوة وضعفاً حسب شهرة الكاتب ومكانه من البيان . ولعل المنشئين البادئين في الانشاء هم اكثر الناس انسياقاً وراء اللفظة من الالفاظ قد وقعت تحت الاقلام موقعاً حسناً موفقاً ، يترصدونها لهذا الجو القوي الذي

غمرهـا ، حتى اذا ارسلوها انطلقت مع ما تقدمها ولحق بها من الكلام وهم لا يعلمون ، فاذا المعاني لا تطرد على تلاحم من غير ثغرات ، واذا النشوز البياني بادٍ لكل قارىء من القراء . وربما كان اكثر التضمين والتمثيل الشعري من هذا القبيل !

وليس من ريب في ان انسحاب الكلمات يرفد الكاتب ببعض الوان المعونة الرفيقة ، ولكن أغلب ما يدور القصد البياني عليه ليس تسلسل الالفاظ ، وانما هو تسلسل الخواطر والصور من حيث يستطيع الكاتب أن ينقلها الى لغته بنفسه . وأكثر ما يحدث في هذا الباب ، ان الكاتب ينساق مرغماً وراء التداعي اللفظي ولا يقوى على دفعه بحال من الاحوال . وليس من خطر أعظم من هذا ، لان الفكرة اذا وقعت على الجملة المهيأة او « الكليشة » فقدت جدتها وإصالتها فبدت كأنها جدث ميت او طلل متهدم . والسهولة العجيبة التي قد نحس بها عند البيان مصدرها في اغلب الاحيان تداعي الكلمات تحت القلم حسبما ائتلفت بالعادة في جمل مرصوفة من قبل ، فما نصنع في مثل هذه الاحوال غير تسجيل الكلام المسحوب

تسجيلاً آلياً مكنياً . واذن فلسنا نحن الذين نتكلم ، وإنما هي الالفاظ تملي علينا من خلال منشآتها الجاهزة ما أراد الناس لها ان تتكلم . وليس في مقدور كاتب ان يدعي القدرة على الانفلات من روابط الكلمات بعضها ببعض مما أنشأه الذين سبقوه من الناس الى الكلام ،ولكن في مقدور الكاتب ان يصطنع المراقبة الدقيقة لكل ما يقول ، ثم لايضع الخاطر الجديد من خواطره تحت رحمة التداعي اللفظي القديم . ومن الضروري الذي لا مفر منه ، ان لا يستجيب الكاتب لدواعي الالفاظ من ذوات الجرس الواحد المجلوب ، وانما ينبغي له ان يطرد من أدبه كل ما يسر الاذن ولا يهز النفس ، وأن يترصد ملابسات المعاني مما يقسر الكلمات قسراً على التسلسل الواضح والجمالية القوية .

على ان طاقة الالفاظ على ان تسحب وراءها أشتاتاً من الخواطر والصور هي من الاهمية في الانشاء بمكان غير منكور ، لان الفن اذا أحسن توجيهها واستخدامها كان الاسلوب نافذاً سامياً ، وكان الكلام قوياً آسراً ، وعلى قدر هذا الاحسان يكون التفاوت بين كاتب وكاتب ، وبين شاعر وشاعر . وإلا ،

فحدثني بربك من أين تسربت البرودة والفسولة الى خطبة رقافة الاحساس ، دقيقة التركيب ، محكمة النسج ؟ لقد أتاها الضعف من جانب الكلمات التي استهدفت غرضاً مقصوداً ، فما كانت للذهن عوناً على الانحدار الى ما وراء المعاني ، ولا فتحت له آفاق النظر الى الاشياء المستترة . لقد كانت عبارة الخطبة واضحة مفهومة ليس لها عمق ولا قرار ، فبدت ثروتها على ظاهرها وما احتفظت بشيء منها في الخفاء ، وما كادت الاعين تتصفحها دفعة واحدة ، حتى فترت وطار منها الشوق الى البعيد من مدى المجهول . كانت الخطبة بحاجة الى العبارة التي تنفرج من ثنايا الفاظها طوائف الصور وأسراب الخواطر مما يأسر الذهن ويحيل قراءة الاعين اللاهية الى نوع من الرغبة النهمة في استجلاء خوافي النفس .

ولا تظنن ان الكلمات الجزلة المتماوجة الرنانة هي التي تمتاز بالايحاء الخصب ، فان للبساطة والتجريد أثرهما في العبور من معاني الالفاظ الى ما يتصل بها أو يختبىء وراءها من الافكار . نقول التجريد ، لان الكلمات المجردة على الرغم من استحالة التمثيل لخصائصها من غير تشخيص ولا تجسيد ،

تستطيع ان توحي بما يضاعف من قوتها وبما يحمل الذهن الى ما وراء مدلولها الحرفي . ومن الخطأ الواضح ما يقول به بعض الكتاب من ان الكلمات المجردة تحرم الاسلوب من الحياة والنضارة . ولئن كانت هي كل بضاعة الفيلسوف والعالم عند البحث ، فانها لتبعث ما يمت الى طبيعتها من الخواطر الصافية المتسامية عن المحسوس . وفي الشعر الحديث كلمات مجردة كثيرة قد ألقت الضوء على قوة الجذب للعواطف ، ومدى الاهاجة للخواطر ، وكذلك النثر يعود نفاذه وعمقه الى هذه الكلمات المجردة التي لا تحبس الخيال في إطار الحقيقة وانما تطلقه حراً يطير في الاجواء والآفاق على هواه .

وقوام الامر كله في الالفاظ ، المجردة منها والمحسوسة ، عائد الى عبقرية الكاتب وفن الشاعر . فعلى قدر مساندة الكلمات بعضها لبعض ، وعلى نوع التأليف بينها ، يتوقف الاحسان في نفض الثروة الفكرية على وجه البيان . ولقد ينبغي أن يكون ثمة تباين في طبيعة الصور او تماكس في مادة الخواطر ، بحيث يجب ان يطرد الايحاء على موكب نفسي متجانس ، فلا تنبو صورة عن صورة ، ولا يشوه خاطراً خاطراً . ورب

لفظة وردت في غير مكانها من البيان تبعث الى الذهن أخيلة لا تساوق ما يحيط بها من الاخيلة ، فاذا القارىء متوزع الشعور مضطرب النفس ، لا يتلمس طريق الانسجام ، ولا يعرف معنى الوحدة .

ولقد يتفق للفظة الواحدة أن تقوى على ايحاء الكثير من الصور والخواطر مما قد يضيع معه أثر البيان ، فليحذر الكاتب من مثل هذه الالفاظ او فليحذر الوقوع في الوان تداعيها . والسبيل الى هذا ، أن يحيط اللفظة بالفاظ تقطع الطريق على مالا يريد من الصور وما لايحب من الخواطر . ولعل النعوت والصفات هي اقوى الوسائل الى هذه . الغاية فانظر الى بيت « لافونتين » : « كان الحطاب المسكين مغموراً بالاغصان » كيف ان النعت لا يوحي من الحطاب الا شكله الطبيعي ، ووجهه المجهد ، وظهره المقوس ، وثوبه البالي . ثم انظر الى بيت « هوغو » : « يعمل الحطابون الضعفاء في الليل » كيف ان الصفة لا تبعث الى الذهن غير شبح الحطاب واشارته وحركته !

ان مزاوجة الالفاظ فيما بينها عملية دقيقة لا تقوم بها

الا بصيرة المنشيء بعد كل كلام . فليعرف الادباء هذا على الدوام . أما الملاحظات التي بسطناها من قبل في هذا الفصل، فحسبها ان توقظ الغافي وتنبه الساهي وتنير السبيل الى البيان .

— ٤ —

الالفاظ اذا انتظمت صارت الى العبارة ، والعبارة تحمل خصائص شتى غير خصائص الالفاظ ، كالدقة والايجاز والوضوح والبساطة . وسنقول في هذا كلمة او كلمتين حتى يستقيم لنا وجه البيان على الشكل الصحيح . فأما الدقة فمظهرها أنك تكتب كلاماً ثم تشعر ان ما جال في نفسك قد انبسط وانكشف بكامله في هذا الكلام ، فاذا أعوزتك الدقة، كأن ترى شعورك ناقصاً مثلوماً في البيان ، لجأت الى وضع لفظة في جملة أو اضافة جملة الى فقرة ثم تبسط المبهم وتنشر المطوي ، وما تزال تزيد وتقدر وتقدم وتؤخر ، حتى يتم لك المعنى ويصير الى النور . وهذا الزحف البطيء نحو البيان لا يتأتى كما رأيت الا بالتماس الالفاظ التي تكشف الشعور رويداً رويداً ، وتبرز الغاية على هون .

وما شيء يباعد بينك وبين الدقة كرغبتك في ان تقول كل شيء على دفعة واحدة . فالتضحية ببعض الخواطر ضرورية لاحياء بعضها الآخر ، والامر في بيان الفكرة كالامر في تقسيم الموضوع، كلاهما لا بد ان يقف عند حد لا يجاوزه الى غيره من الحدود . فانت تقول شيئاً ثم تخبيء وراء ما تقول أشياء ، بحيث يبدو الاصل الضروري من سطح البيان ، ويبعث الفرع المكمل بعد الامعان ، وبحيث يعمل القارىء جهداً او بعض الجهد في استكشاف الخواطر واستجلاء الغوامض . وأسمى البيان ما اشترك في تقديره وتقويمه الكاتب والقارىء ، أولهما يقول ما يقول بين الوضوح والغموض ، وثانيهما يقرأ بعقله ويتملى بنفسه .

على أن الاقتصاد في الالفاظ لا ينبغي أن يكون على حساب المعاني ، فما تستهلك الخواطر من أجل الكلمات ، وإنما تضع أكبر ما يمكن من جوانب الفكرة في اوجز ما يكون من العبارة . على أن لا تغلو في هذا الايجاز كل المغالاة ، إذن لاختنق بيانك بالمعاني قدرصت بعضها الى بعض بحيث لا يمكن التمييز بينها بسهولة ، فما يتسرب اليها الهواء ، ولا يشرق بينها الضياء . وما يقاس الايجاز بعدد الكلمات ولا بطول الجمل ، وانما

يقاس بالنسبة المعتدلة بين الخواطر والالفاظ ، فلا يكون في هذه زيادة ولا يكون في تلك تجمع او ابتسار .

أما الوضوح في البيان ، فآتٍ من إشراق الفكرة في ذهن الكاتب من حيث يعرف خصائصها وسمتها وصلتها بغيرها ، وآتٍ من شدة الشعور وقوة الايمان بالفكرة ، وآت من احكام التعبير عن المراد بالدقة المرجوة . ولعل أظهر ما ينقص الشباب المبتدئين في الانشاء ، على الرغم من توقد اذهانهم وشبوب عواطفهم ، انما هو الحرص على الدقة والايجاز ، فلقد يكتبون في شيء من السهولة وكثير من السرعة ، ولكنهم يطفئون نور بيانهم بهذا الكلام الطويل المعتل الرخو الى حد بعيد . فالجملة غير موصولة ولا موزونة ، والتعبير جاف مطلق ، وهم يقولون كل ما يعرفون ، ولا يعيشون فيما يقولون ، ثم لا يستكملون أدوات ما يجهلون : ضرب من البيان ليس من فوقه ولا من تحته شيء ذو خطر ، او قل سلاسل من الكلام منشورة على ارض مبسوطة لا يغمرها ضياء ولا هواء !

ولقد يحلو لبعض نقاد الادب ان يقولوا : اسلوب بسيط ، واسلوب اعتيادي ، وأسلوب وسط ، واسلوب عالٍ . . . جهل

بالاسلوب لعمري مطبق غريب ، وفروق لا أصل لها في البيان ، وان وقعت بين الاشياء ، فانما الافكار هي التي تسف او تعلو أو تروع ، وهي التي تصنع الاسلوب على مثالها من الاسفاف او العلو أو الروعة . أما الالفاظ فقدرها في بساطتها ، وبساطتها من جنسها ، ولا شيء غير هذا . ان مهمة الالفاظ ان تعرب عن المعاني على نحو دقيق أوقل على نحو بسيط ، فما نعرف بياناً استطاع أن يتعالى عن البساطة ، لانها التكافؤ بين اللفظ والمعنى ، أو المطابقة بين الشكل والفكرة . وما تتعارض البساطة في الاسلوب مع الروعة ولا مع الدقة ، وذلك لقدرتها على كشف اسمى أنواع الفكر ، وأدق ألوان البيان

آبل بونار

عضو الاكاديمية الفرنسية

من صالة « ليزانال » الكبرى بباريز ، وامام الصفوة المختارة من حملة الفكر والادب ، كان صوت الشاعر آبل بونار ينطلق هادئاً ناعماً في « الحياة والشعر » كما انطلق من قبل في نفس المكان وأمام نفس الجمهور صوت زميله بول فاليري . وبونار يحسن الحديث عن الفن بعقله كما يجيد نظم الشعر بروحه . أصدر أولى مجموعاته الشعرية عام ١٩٠٥ ، ثم ألف جو القصص والرسائل . وهو اديب طلعة جواب آفاق ، زار مراكش والصين والبرازيل ، ثم عاد الى باريز فاستقر بها ، ودخل الاكاديمية الفرنسية كعضو دائم في ١٦ حزيران عام ١٩٣٢ .

الحياة والشعر

سيداتي ، سادتي

سنلقي على الحياة التي يحياها الناس ويضطربون لها في معاشهم ، نظرات طائرة خاطفة ، ونستعين [illegible] الهة أو الشعر في تلوينها وتوشيتها وتطريتها ! والموضوع الذي يتناول الحياة والشعر ، فيتحدث عنها حديثاً قصيراً او طويلاً ، يجهد الباحث إجهاداً كبيراً ، فيذيقه معنى العذاب الفني والعلمي ، ويقتضيه من الهدوء والامعان والتحليل ، ويكلفه من الدربة والثقافة ما نرجوا ان نخرج منه سالمين لا لنا ولا علينا

— ١ —

لو وقفنا في الشارع العام من البلدة ، نستنطق أوجه الغادين والرائحين ، ونتخير بعضهم على استحياء ، ونسألهم صور حياتهم ومعاشهم ، فكم ترون من رجل ندّى الشعر حواشيه باللذة ،

ونضرت العاطفة جوانبه بالجمال ؟ الظن عندي ان اكثر من نرى ههنا وههنا من الناس ، على اختلاف ميولهم وجنسوهم ، يحيون حياةً صناعية آلية ، لايشعرون بالطبيعة الضاحكة التي تحف بهم من كل صوب ، ولا بالمهنة الرابحة التي يمارسونها في نهارهم ، ولا بالبيت الهادىء الذي يفزعون اليه في ليلهم . وهي من دون ريب حياة سريعة مضطربة ، تعمل من غير احساس بالانتاج ، ولا تقدير للطاقة ، ولا تصور للغاية

وينغمس الرجل في مشاغله اليومية الى مافوق اذنيه ، ويسعى من الصباح الى المساء في كدح متصل لا ينقطع ، ويستهلك رجليه ويديه ومواهبه في سبيل البطن الذيلا يشبع ، والغريزة التي لا تنطفىء . والمرأة ـ من ناحيتها ـ تتوزع ما بين طعام نيء تطبخه ، وطفل ناشىء تهذبه ، وزوج مريض تهدهده ، وغرفة مشعثة تنسقها ، وثياب وسخة تنظفها . . فليت شعري متى يفرغ الرجل والمرأة للحياة يتذوقانها ، وللطبيعة ينشدانها ، وللشعر يسكبانه في نفسيهما ويلفحان به وجودهما ؟

أنتم لن تروا الرجل والمرأة الا مسرعي الخطا اوبطيئي العمل ، ولا وسط عندهما ؟ فلو ان السماء راق اديمها لما استشرفاها

من السطوح وتذوقا زرقتها وسعتها ، ولو ان القمر سطعت أشعته لما سجدا لسحره وجلاله ، ولو ان امام تبدلت فصوله لما شعرا بأجوائه وأرواحه . فهما من الغفلة عن مفاتن الحياة بحيث لا يكشفان عن مواضع السر في الطبيعة ، ولا ينفذان الى مواطن الاحساس في النفس . ولذاذاتهما التي يفيئان اليها انما هي بضاعة مزجاة مشتراة من اسواق الآخرين لا مبتدعة من أثباج الشعور الباطن . فكل ما تسمعونه من كلامهما المعاد لا وزن له او تلحظونه من اعمالهما المتشابهة لا ذوق فيها . . !

لا تروعنكم جهامة هذه الصورة التي عرضت لها ، ولا غرابة هذا التصور الذي تشاءمت منه ، ولا قوة هذا التصوير الذي اوجزت فيه ، فاني قد قصدت الى ذلك كله قصداً ، والتمست اليه السبيل ، لان النفوس السود في هذه الدنيا كثيرة ، ولأن كثرتها على هذا الشكل الكابي لا تبعث على الرضا ولا تستحق التقدير ، وانما فعلت ذلك عن نية ، لأدلكم على الوجه الذي تستطيع معه العاطفة الشعرية ان تقوى في قلوبنا او تدخل الى حياتنا او تنهض بأعمالنا . لقد جزت بكم

الظلام لأخرج معكم الى النور ، وجلوت لكم الليل لنخلص منه الى النهار ، ونشرت لاعينكم النفس المطوية انرى السبيل الى الشعور الجميل كيف يقوم الاشخاص ويلون الاشياء ويخلع على الطبيعة السحر والرواء . وما ادري وحياتكم أأفلح في ذلك ام أكبو وانا حزين ؟

ان الشعور الجميل لمتصل اوثق اتصال بكل ما هو قائم في اعماق نفوسنا او عامل على خلق حياتنا او موجه سير سلوكنا . فما ينشأ هذا الشعور من اضطرارنا الى العمل او اندفاعنا فيه قسراً ، وانما ينشأ من القيام به عن ارادة وحرية واختيار ، ولعله نتيجة من نتائج هيمنتنا على الحادثات لا هيمنة الحادثات علينا ، وطلوعنا الى دنيا الاشياء لا انحدار الاشياء الى دنيانا . وانتم تتبينون انبثاق العاطفة الشعرية في نفوسكم كلما أكثرتم من عناصر الحياة في العمل الذي تقومون به ، وعرفتم قضاء الملاوة التي تعيشون فيها . وكذلك نلتمس الشعر في فترة الراحة اذا كانت هادئة رائقة ، وفي النوم اذا كان مطمئناً حالماً . . .

نلتمس الشعر في العمل الذي نحبه ولا نضطر اليه ، ونلتمسه

في الحرية التي نسعى اليها ولا تسعى الينا ، ونلتمسه في النأي عن أماكن العبودية والقهر . هنالك نهيم مع الحيـاة وتهيم الحياة معنا ، ثم تغدو هذا النفوس التي بين جوانبنا وكأنما هي هذه البحيرة الرحبة العميقة تحت ظل رطيب من الخضرة والشجر والزهر ، فيها نور النجم يضطرب ويلتوي ويتحلل ويستطيل ، وفيها صفحة السماء تمتد زرقاء جميلة عبر الحدود ، وفيها قطع الشمس تتسلل اليها مكورة لامعة من بين الاغصان ، وفيها زغردة الرياح تلعب على وجهها وتهز من مائها ، وفيها القوة والجمال والخلود ...

هنالك يتبلور الكون في نفوسنا ، فما نبقى مؤطرين بأطار الزمن والبيئة ، ولا جامدين في اسار الخصائص والفطرة ، ولا واقفين على حدود البلد والوطن ، وانمـا نـتشرف نفوساً أخرى ملأتها احلام كأحلامنا وتيمتها أمانٍ كأمانينا . نتآخى معها ونتلاصق بها كشقيقات متشابهات يسبحن في دنيا الحياة على صعيد من الروح واحد .

نصيب الشعر في كل عمل نقع نحن فيه ولا يقع هو فينا ، نتخيره بجوارحنا وحواسنا ، ونهتدي اليه بملكاتنا وممكناتنا ،

وكأنما نحن قادمون فيه على امتحان لأعصابنا وقوانا .
سموا الذي تضطربون فيه عملاً او بطالة ، نشاطاً او راحة ،
شعوراً لاهباً أو خابياً ، فأنما المهم في كل ذلك ان نمر
على الشعور ، وننفذ الى الاعماق ، ونفدي الحياة بطل
الافراح والاشجان !

لقد نعمل العمل الذي لا نحبه او نحبه بعض الشيء ، فلا
نحفل به كل الاحتفال ، ولا ننشط له او نقبل عليه ، فيلتوي
بين أيدينا كل يوم الف مرة ، ولا نصيب من ورائه النجاح
المرغوب ، لأن وجه الدقة في صنعه ، وجمال العظمة في روحه ، قد
التبسا علينا فغاما في ضباب الكره الذي نضمره ، والتردد الذي
تتعثر به ، فاذا نحن بؤساء او كالبؤساء نريد العمل ولا نملك
دوافعه ، ونحرص على الفائدة ولا نعرف وسائلها ، واذا نحن
فاشلون مقهورون نجهل معنى السعادة ولا نستشعر
الاحساس باللذة

وهذا صحيح من أي الجوانب رأيتموه ، صحيح اذا صعدتم
الى المهمات الكبرى وجلائل الاعمال ، وصحيح اذا
انحدرتم الى المبتذل من الامور والوظائف . ويمكن ان يقال

على سبيل التمثيل ان كل الذين كانوا كباراً عظماء في عالم السياسة او العلم كانوا شعراء في الوقت نفسه ، من حيث انهم وهبوا نفوسهم كلها للشيء الذي يقومون به ، فمنحوه العاطفة والفكر ، وبذلوا له الدم والزمن ، ومن حيث انهم استطاعوا الاتصال بالناس والاستشراف على الحياة

أي امرىء انغمس فيما خصص له معاشه ، وطوى عليه حسه وحدسه ، يفوز بهذا الشعور الجميل الممتع الذي يريق على الحياة شتى ألوان البهجة واللذة والكمال . ولنضرب على ذلك وعلى عكسه الامثال :

هذا رجل نفعي من رجال السياسة ، جال في الحقل القومي بضع جولات قصار فاذا هو بعد حين وزير ! انا ما أراه يصنع وهو قريب العهد بالسياسة والوزارة الا ان يزهو بهذا الثوب الحكومي الجديد ، والا أن يتخذه من الوظيفة سبيلاً الى جمع المال والشهرة والنفوذ . وليس في هذا كله شيء يسمو بالنفس الوضيعة الخسيسة الى مجالي الشرف والسعادة . ولكن هناك سياسياً آخر نبيلاً اذا ارتقى يوماً الى منصة الحكم عرف واجبه نحو امته فأغناها وهيأ لها المجد ، لأن القصور التي

يستوزر فيها سوف تحدثه كلما مر بها حديث العظماء من السياسيين الذين سبقوه اليها ، وهو نفسه يفقه ما تقتضيه الوزارة من النشاط في العمل، والحزم في الادارة، واليقظة في الضمير، والدقة في التقرير . وتتراءى له كل هذه الاغراض العليا بشكل جميل فيصون سموها من الدنس ولا ينحدر بها الى درك المنفعة الخاصة والجاه الشخصي ، واذ يفهم الوظيفة على هذا النحو فقد استمتع ببرد اللذة وعرف جمال الشعور

وهذه خادمة تاجرة ـ وما اكثر الخادمات التواجر ـ تشتغل في بعض البيوت بأجر شهري محدود ، وتنتظر ان تقبضه بكفيها على أحر من الجمر ، ثم لا يهمها من نظافة البيت ولا من طبخ الطعام شيء ، وسواء لديها أأحبها سيدها ام كرهها . ولعلها تنظر اليه نظرها الى غريب من الغرباء او عدو من الاعداء ، وفي نفسها هذا الجشع المكتوم والحرص على اللصوصية كلما واتتها الظروف . أفتظنون ان خادمة كهذه تستطيع ان تحمل بين جوانبها قلباً سعيداً راضياً ؟ ان خادمة متواضعة غيرها تجيبنا على هذا السؤال . فهي تحب البيت الذي تعمل فيه حبها لبيت أبيها وأمها ، وتعنى بتنظيفه وتنظيمه كأنما هو ملك لها ، وتغتبط

بهذا الموقد المشع على الدوام وبهذه الخزائن والدروج المليئة بالاثاث والثياب . اذا ران على الارض بعض الادران والاوشاب عمدت الى الماء بأسرع من البرق فغسلتها حتى تلمع ، واذا لمحت نسيجاً من نسج العنكبوت في بعض الزوايا أخذتها ثورة الجنون فما تهدأ حتى تزيل هذا الاثر المشؤوم من آثار النسيان والاهمال ، ثم تستريح من عناء العمل سعيدة بهذا المجد المتواضع الزاخر بالشعور الهادىء الجميل .

وأترك لكم ان تعددوا انتم الامثال على هذا النحو من أي المراتب والمنازل أردتم ، وان تستعرضوا شتى المهات والامور، فستجدون من غير ريب ان العاطفة الشعرية لا بد ان تنبثق في كل نفس تحب العمل الموكول اليها على اختيار وحرية إرادة .

— ٢ —

الحياة من غير شعر ولا شعور ، ومن غير توشية ولا تطرية ، ضرب من عبث الزمان في قتل النفس ، وجهد ضائع في مسرى الرياح ، وجريان مشوش في دنيا العمل ، وأسلوب بغيض ليس

من خلق الطبيعة ولا من سنة الله . والكادحون بلا عاطفة ولا إنتاج ، كالنملة بلا أجر ولا شكور ، يدورون دورات فاشلات ويبددون المواهب من غير اشعاع .

كيف السبيل الى توشية الحياة بالشعر والشعور ؟ السبيل متشعب الى سبل ، والطرائق أشتات ، والاسباب كثيرة . فلنعدد بعضها من غير تعنت ولا إحاطة . صورت لكم في مستهل هذا الحديث شقاء الرجل في المدن ، واضطرابه بين الوان الهموم ، وبعده عن الاستمتاع بالطبيعة . ولكن الرجل لا بد ان تكون له دار يملكها أو غرفة يأوي اليها . هنالك تنتهي دنيا الشارع لتبدأ دنيا النفس ، وهنالك يقف صخب الناس لتجري نجوى الخلوة . يفزع المنعزل في عالمه الصغير الى اشياء حبيبة موقوفة عليه وموضوعة على طاولة او معلقة على جدار ، ليست تروع ألباب الزائرين اذا استضافوه وانما تستهوي جوارح صاحبها كأنما هو مسحور بما يرى ويملك ، وكأنما هي حماة شعوره وحرس حدوده ومنتجع خواطره . وفي بيته يتراقص لهب الموقد في الاماسي والعشيات ، فتلتمع عيناه لالتماع النار ، ويحلم من فرط النظر اليها ثم يعود الى نفسه حتى ينحدر الى اعماقها ،

وحتى يتسقط مواقع اشجانها وهواجسها .

لئن احتفظ « بودلير » على وفاته منذ بعيد ، بمكان سامق بين الشعراء ، فلأنه الشاعر الفرد الذي تغنى بآلام السكان من المدنيين ، وجال في دوائر حبيسة من شكوك النفس وحيرة الضمير ورؤى الخيال . وما كان الرومانتيكيون من الشعراء في القرن التاسع عشر ، بالرغم من قوة ملكاتهم ووجدانهم ، لينفذوا الى عالم المشاعر الدفينة الكامنة ، وانما وقفوا على سطح النفس لا يتجاوزون حدود عواطفها القريبة الا قليلاً . أما « بودلير » فهو كاشف المستتر المكبوت من الاشجان ، وشاعر الحلو البعيد من المعاني . كان واضحاً في إبهام ، ظاهراً من وراء غمام ، قوياً على الافهام ، متركزاً بلا اتساع ، دقيقاً من دون بلاغة . وكانت الفرجة الشعرية التي فتحها أمام الذين يحبهم من الناس مصبوغة بالسويداء والكآبة ولا تنتهي الى المرح واللذة ، لانها تظل حبيسة الامكان في العودة الى ظلام السجن ، ولأن الانسان الحديث يعرف من نفسه انه يحمل جرثومة المشكلة وبذرة الداء .

إن شعر « بودلير » متصل بطبيعة الانسان في هذا العصر ، وخاضع لشرائط الحياة الحاضرة . ومن مجموع هذه الطبيعة

والشرائط يتكشف الميل الاصيل في الانسان الى ألحان الموسيقى، والاستعداد العنيد للهيام بسحرها وجمالها . واذا كان الناس الآن يحبون الموسيقى حباً شديداً فليس ذلك ناشئاً عن تفضيل بعض الوان الفن على بعض ، وانما هو ناشىء عن أثر الموسيقى في مجموع الاعصاب ، وعما تشيع في أوصال المرء من النشوة المسكرة وعما تأخذ الاحلام والاحزان من الانطلاق والتململ في اللحظة التي يدوي فيها الصوت الحلو العظيم . ومن هنا كانت هذه الجموع المحتشدة في حفلات الآحاد تشرب على انغام سمفونات بيتهوفن فلا ترتوي من الشراب ولا تشبع من الطرب . وما حب انسان هذا العصر للموسيقى لانه موسيقي ، ولكن لأنه البائس التعس . . .

تمثلوا شاعراً آخر غير بودلير منشىء الاشعار الرفيعة من حملة العاطفة القلقة المعذبة . تمثلوا شاعراً استطاع بسمو مواهبه ان ينهض الى رأسه او يخلق من عقله عاطفة من أرقى العواطف وأندرها في الوجود . تمثلوه وهو ينحت عالمه الفني بمواد من البناء هي ملك الناس جميعاً ، ثم يصقل الاحرف وينقي الالفاظ ويزاوج بين الكلمات على نحو جديد لم يلتئم فيه من قبل .

تمثلوا هذا المطرب الساحر العالم تجدوه « استيفان مالارمي »

وبول فاليري ؟ .. أننسى بول فاليري وهو حي يخطر على تراب فرنسا بشاعريته الفذة وفنه العجيب ؟ ههنا ياسادتي عاطفة قوية حادة، تحمل دنيا من الخواطر والآراء، وتقتات من كل جميل فاتن يشاهده الشاعر الكبير او يقع عليه بحسه الموفق وبديهته المرتجلة . ههنا أسلوب في الشعر لا يعرف ذوو البصر بالقريض ادق منه ولا اعمق ولا أروع . ههنا حياة جليلة خصبة عبقرية ما تفتأ تدور على نفسها وتتكتمل في ذاتها حتى تصير الى مثل هندسة ذرة البلور وذرة الثلج ! . .

هكذا يواتي الشعر المدفون كالكنز تحت الضلوع كل من نفذ الى قرارة نفسه، وجاز الى اعماق شعوره . وثمة شعر آخر قريب منا نستمتع به أيما استمتاع اذا خالطنا العالم الذي يحف بنا واتصلنا بالحياة المبثوثة في ثناياه . فهذه الغيوم بيضاء، تمتد في صدر السماء من فوق رؤوسنا طوال الايام، وهذا القمر كالفضة يميس بشعاعه الناعم على سطوح بيوتنا، وهذه الليالي صافية ترمقها أعين النجوم الظالمة . اما المـلاوة من الزمان فجليلة القدر كالاله يطالعنا بعظمة كونه . وهذا

كله من بعض وجوه الطبيعة التي طالما احتفلت لها أقوام واستمتعت بها شعوب ، وكان أقوى ما اجتذبها إليها تقاطر المناظر المتلونة فمنحت الارض عطفاً لا يفوتها معه سحر الجمال اذا استتر او انبهم او دق .

أنا أفكر ببلاد اليابان . هنالك اذا حط عصفور على حافة نافذة هفا اليه النظر المداعب ، واذا رفت فراشة في الفضاء اهتزت لها الاعين المشوقة . وفي الليالي القمراء يتوزع القوم في البراري فرادى يحلمون بالضوء الباهر . اما العام باليابان فمشطور الى فصلين كلاهما ممتع جميل : فصل الربيع الذي تكتسي فيه اشجار الكرز بأزاهير متزاوجة تحكي لون الغيوم المتوردة ، وفصل الخريف الذي تتبعثر فيه الاسمدة على هيئة النار الموقدة في الهواء الطلق ! .

أين نحن من مثل هذه اللذاذات القوية ؟ ان العالم الطبيعي يضحك حوالينا فلا ننعم بضحكته ، والربيع البهيج يجيء الينا بوجهه المتألق ثم يغيض ماؤه على فترات فلا نعرف متى كان وروده ولا انطلاقه . ولهذه الغفلة عن نعم الطبيعة أسباب : منها أن المدن لا تميز الفصل من الفصل ، ومنها أن هموم الرأس

كثيرة ومتاعب العيش أكثر ، ومنها ، وهو أهمها ، ان الحياة الحديثة تعقدت الى درجة تحجرت معها أغشية العواطف الرقيقة التي نتملى بها سماحة الاشياء . فالجماعة التي نعيش في قلبها ، والسياسة التي ننغمر بجوها ، تحبسان المرء في حدود الساعة التي يحياها ، وتباعد بينه وبين العالم ، ثم تلهيه عن وجهي البندين الجميلين وقد لون احدهما ذهب الشمس ، وازين ثانيهما بطالع النجوم !

يستطيع الفقير أن ينسى فقره يوماً ليتحسس بجمال الوردة ويتشمم طيوبها الزكية . ولكن الانسان الذي ردد زعماء العامة والكلام على مسمعيه المرة بعد المرة انه « برولیتاري » وليس الا برولیتارياً ، يغدو اسير هذا الوهم فيشيع قلقه ويحلم بالمتع التي لا تتطاول اليها يداه ثم لا يرى الخيرات الدافقة التي تجري إليه . وكذلك الغني المؤطر نفسه بغناه محروم من الثروة العامة التي تسيل من حوله . فما عجبي الا من بعض الاحياء يلقون في وجه هذا العالم ستاراً صفيقاً من الجهالة والغباوة والعماء !

الربيع والخريف يعرقان من غير طائل سهامها المراشة ، والشتاء

يعرض عيناً لهؤلاء الخلائق التي لا عيون لها كل بهائه الطويل .
وما أجهل ان سكان المدن يفرون في بعض الاحيان الى البراري،
ولكنهم لا يفيدون منها شيئاً حين يحملون اليها جسومهم من دون
أن يهيئوا لهـا نفوسهم . فما يكفي ان ننبش وجه الارض حتى
نتزلق الى بطنها ! ان الشباب الذين يتعرون من الملابس على شاطىء
البحر او يضربون بالسيارة في جوانب الارض ، لا يدخلون الى
مفاتن الدنيا اذا لم يوقظوا لهـا وجدانهم على حال مرهف
مشبوب .

اما المستمتعون بالطبيعة فهم المتأملون في صور الحقول او
المستنشقون من عبير الزهر او المتنزهون بين الخضرة
على مهل . .

—٣—

يتنزل الحب على القلوب والرؤوس كما يتنزل شعـاع الشمس
على حواشي الليل المحتضر او كما يتنزل ندى الصباح على اوراق
الزهر النائم : يبعث فيها الحيـاة ، ويهيج لها السرائر . فاذا
هي في نشوة مشرقة تخـال معها اليقظة الشاعرة كأنها منبعثة

من روح الوجود ومساوقة للحن الخلود . وهذا الحب الحبيب أنشودة الحياة في الشعور ، وطريقها الآخر الى التوشية . وهو مبذول لمن شاء ان يشتريه بثمن بخس ، او هو «شعر الجميع» في اللغة الديموقراطية ، يستشرف بنا على رقاق الفصول ودقاق الاشياء ثم يمنح الذين يضطربون من الاحياء اضطراباً عادياً مألوفاً — مظهراً من مظاهر التسامي غير العادي ولا المألوف

ويمكن ان يقال بكل بساطة ان العاشق يدخل بعشقه في دنيا غير دنياه ! وما نريد مع ذلك ان نغلو في تقدير هذه الاعجوبة الكبرى ، فأن من الحب ما يتبذل معه حملته من الشباب ، وهو بعد هذا معروض في السوق لا يكلف الطالب إنفاقاً غالياً . فأما اذا كان اعجوبةً فحيث يرهف نفوساً كانت من اصلها على شيء من الصفاء والحنان والرقة . هنالك الفتون الذي لا ينتهي ، والاحساس بأوساط الامور ، والعمل على نشر المطوي النادر من الحياة ، والتمركز حول الوجود الملهم ، والتخاطب مع جمال الطبيعة وروائع الفنون

المغرمون على هذا النحو من الغرام يعيشون بيننا كالغرباء من غير ريب ، فيهم من العاطفة الدافقة اكثر مما لأي إنسان إزاء

الممتع الحلو مما يبدو من صور الدنيا ، ولهم من السعادة الواقية ما يمنع الابصار ان تقع على الدميم الشائع في هذا العالم . ومثل هذه الاعاجيب ليست كثيرة ميسورة ، لأنها تقتضي اللقاء الخصب بين الرجل والمرأة ، وهو شيء نادر في هذه الايام .

ههنا سؤال لذيذ ساق اليه تشقق الحديث عن الانوثة : أي الناس الرجل ام المرأة أقوم فطرة وأكثر استعداداً لحمل معاني الحياة الشاعرة ؟ يخيل الي ان النساء على الجملة هن المتفوقات الموهوبات في هذه المجالي ، وذلك لأنهن قبل الرجال شواعر بالحياة العامة التي تتحيف النفس وتتصل بالحواس . فالربيع اذا حل كانت المرأة هي المسرعة للشعور بخفقة أصباحه وسجو امسائه ، اما الرجل فلاه بعمله ، فسعيد به او شقي . وما شيء كالسعادة يتمم النقص الضئيل في المرأة ، ويقوي الضعف الجميل في الانوثة ! لقد يكتسي النبات وحده بالازهار ، وتكون النساء في الحياة عنصرها الشعري وعرجونها الاخضر . ومن أجل هذا نعجب كل العجب اذا لقينا المرأة الهامدة التي لا تشيع فيما حولها المتعة والبهجة . واستطيع أن اقول إن

النساء الحربيات من السحر الانثوي كثيرات لعدة أسباب ، فمنهن الجميلات وليس غير الجمال كأنما هن الحديد المطروق او البلور المصقول ، وكأنما هن الاجرام السيارة التي لا جو لها ، او النجوم المنيرة التي لا اضطراب فيها . وليست المرأة الحق شيئاً من هذا ابداً ، لانها هي التي تذهب الحياة بشمسها ، وتهذب البيت بروحها ، وتأسر الرجل بسلطانها ، ثم تحكمه وتخدمه في آن واحد

ومن الخطأ الفادح ، مع هذا ، ان نعتقد بقدرة العيش العنيف المتحرك على ان ينهض بنفوسنا الى مستوى الحالات الشعرية ، فلربما كانت الحياة المنظمة اكثر منه رقة ورهافة وعمقاً ، وتجيء السعادة فتنسج هي الاخرى نسيجها بخيوط من ذهب . ولعل في استطاعة الاصدقاء من الناس الذين يتلاقون كل يوم ان يتواثبوا الى اللذات اذا هم عرفوا طريق الصعود الى خصائص مواهبهم الاصيلة ، والاحساس بكرامة الصداقات . ومن الواجب ان نألف الامعان في الذين نحبهم حين نخالطهم ، كما نجتر ذكراهم يوم يذهبون ونحيا نحن من بعدهم ، فما يحجب الآلام غير الافراح !

الى أي حال تصير الهموم والاشجان في الحياة النفسية التي عمقت وانتظمت ؟ تصير الى النسيان عند الاوساط من الناس الشرفاء . لقد تشتد وتقوى اول الامر ، فيضيقون بأعبائها ، وتحلولك الدنيا في أعينهم من أجلها ، ثم يلفظونها لفظ النواة ، وما يبقى لها في النفس عمل ولا اثر . فالانسان الاعتيادي لئن عرف الآلام الحادة فلن يعرف الآلام العميقة .

وتصير الى اليقظة عند ذوي الحساسية من الناس الشرفاء ، فما تبرح في نمو وتدسس وامتداد حتى تتمركز في قلب الشعور وتلتحم بمادة الخواطر ، ثم تستحيل الى عنصر قوي اصيل . وفي قرارة النفس الشاعرة تتجاوب الاتراح والافراح حتى ليصعب عليكم فرز بعضها من بعض كأنما هي صارت الى نوع من التعاطف غريب . أرأيتم الى الاطيار كيف تتغنى كلها مجتمعة اذا شرع الواحد منها في التغريد ؟ هكذا الألم القديم: طير يغني كلما غنى طير اللذة القديمة . وفي الاقوال المأثورة : «الآلام الجديدة تصرخ ، أما الآلام القديمة فتغني » .

لن ينضب الموضوع الذي يتحدث عن الحيـاة ، ولن ينتهي الكلام الذي يصور الشعر ، وما عرضت على مسامعكم غير الجانب اليسير من الصلة بينهما مما سمح به الزمان . ولقد رأيتم اننا نلتمس الشعر للحياة من طريقين اثنين على الخصوص : من طريق الانحدار الى اعماق النفس ، ومن طريق السمو في امتداد النفس . فنحن نلتمسه في النشاط الحيوي الزاخر ، وفي اليقظة الحالمة الحرة ، وفي المهنة الموكولة الينا اذا قدر لنا ان نمنحها كل قلوبنا ، وفي الاتصال بمفاتن الوجود وبهجات الطبيعة .

وكأني بأصباح الصيف تتنفس عن روح الدنيا فنستيقظ على وضح أشعتها ، ونطرب لغناء عصافيرها ، ثم نتحسس بألف شعور وشعور من السعادة . ولئن ركضنا وراء روح الدنيا في الاصباح ، وتلاقينا معها في صعيد النفس ، فلأن الشعر ينبثق من هيكلها في هذه القلوب التي تخفق بين جوانحنا بالحياة اثناء الاقامة القصيرة على الارض . وثمة شعر آخر نتملاه كلما اجترنا آلامنا وأفراحنا ، فلا شيء عظيم عند النفوس الصغيرة ، ولا شيء

خصب عند النفوس الفقيرة ، لأن الاشياء في ذاتها ليست بالكبيرة ولا بالحقيرة ، وانما هي تسوى بمقدار ما نسوى نحن من الاقدار ، ولها من الحيز والطول ما لقاماتنا الخاصة . وتكون العاطفة الشعرية كأنما هي تاج الحياة الصافية ، ونصيبها من دنيا الجزاء . ومن أجل هذا يراها الناس جميعاً في نفوسهم من أي المنازل كانوا بين الكبراء والوضعاء ، ما خلا الانسان المتوسط الذي حرم مثل هذه الاعياد الممتعة لانحباسه بين أهوائه وحبه لذاته .

ليست الحياة شيئاً يُمتلك بالتنفس والطعام ، وانما هي شيء نفتش عليه تفتيشاً ، ومكان نكتشفه اكتشافاً ، وعالم من عوالم ما وراء البحار ، وحالة من حالات الشعور لا نصل اليها الا بالجهد والعمل . وهذه الاعجوبة المطوية أشبه ما تكون بالجزيرة التي لم يرحل اليها الا العدد القليل من الاحياء ، وهي في أنفسكم اذا كنتم تحبون وتتأملون ، وأغلب الرأي انها على قرب منكم اذا أحسنتم النظر الى الارض والسماء ، ومن علاماتها الخارقة انكم لا تحسون معها بالقوة والامتلاء . واذا قدر لكم ان تصلوا الى كل هذه المراتب العليا ، فأن دواوين

الشعراء تتبدّى لأعينكم بقيمها الصحيحة فتتأثرون بسر بيانها ، وتخضعون لجو نغمها ، وتكون لكم الغذاء الروحي والمنتجع المقصود .

وما عسى ان تفيد القصيدة من الشعر أوساط الناس؟ أفيميزون الغث فيها من السمين والدميم من الجميل ؟ . . انهم ينظرون الى الاشعار كلها نظرة واحدة فيها من السواسية ما يحسبون معها انها جماع من الكلمات التي تهتز برنينها وتطرب بجرسها ، وانها مجلبة للتخدير العذب والنوم الناعم ، وما تكاد تنتهي حتى يصفقوا ويستريحوا !

ولكن الشعر عند الخاصة من ذوي الشعور والثقافة غناء سحري او متعة خالصة ـ كما يقول بول فاليري في عنوان بعض مجموعاته الشعرية ـ وأعني ان الشعر ينحدر بنا الى خصائص شخصياتنا ويمحو من حياتنا الى حد بعيد هذه الصغائر والتوافه التي تحيط بنا وتغمر بها . تمثلوا روائع « لامارتين » الالهية ، وخالدات « هوغو » الرنانة ، وعواطف « موسيه » الرقيقة ، وموسيقى « فرلين » اللينة ، تجدوا ان ما هيىء لكم من الشعر الممتاز قدر عظيم ، وما عليكم الا ان تتخيروا منه حسب اذواقكم وامزجتكم .

ومن وراء هؤلاء الشعراء المعاصرين على التقريب طائفة كبرى ليست هي الاخرى بعيدة من نفوسكم ، وعلى رأسها « راسين» الفرنسي و« شكسبير » الانجليزي و « دانتي» الايطالي و« إيشيل» اليوناني

حاولوا ياسادتي ان تحيوا مع امثال هؤلاء الشعراء الاصفياء! ولئن أردتم ان تعرفوا ما يصنع الشعر الجميل من الاثر التطهيري في انفسكم حين تتعودوا اللجوء الى أشباهه من الوسائل ، فتمثلوا جملة احوالكم حين تقفون في الامسيات من ايامكم ، وقد كسرت الهموم الصغيرة من ابدانكم ، وضيقت المتاعب التافهة من حواجبكم ، ثم تألمتم لهذه الالوان من الدمامة التي حرمتكم النفاذ الى اعماق نفوسكم . هنالك تتناولون كتاباً من الكتب الحبيبة ذات الخط الطالع والسيرورة المليحة ، فتترنمون بمقطوعاته الممتعة ترنماً تذوب معه أحزانكم ، وتنبثق فيه افراحكم ، وكأن اوجه ارواحكم قد انمحت منها غضون تجعداتها بكامل آثارها .

قد يزور الشعر حجراتِ الحياة كما زار الملاك طوبيا! وهذا تشبيه لا اعرف اصدق منه في عرض ما اريد ان اقول عن

الشعر وما يتردد في خاطري من خطوط هذه اللوحات الزيتية التي تأنق « رامبرانت » في تصويرها لتلك الزورة الملائكية . فقد كان الضيف الجميل العجيب المغمور بألوان قوس القزح يتبرج في الغرفة المتواضعة من غير ان يبدل من نظامها شيئاً . ويرى الراؤون من خلال عظمته وبجده قطع الاثاث البيتي على الحال المعهود من التواضع الهادىء ولكنها سمت وازينت بأشعته المذهبة الزرقاء ...

إحرصوا ياسادتي على ان تعيشوا في الشعر ، تجدوا ان حياتكم ، وإن لم يمسها في ظاهر الامر شيء ، قد بدات حياةً اخرى اكثر منها اتساعاً وأعمق احساساً

فهرس

اليقظة

سلسلة ثقافية تصدرها مكتبتا

العمومية والبابيروس بدمشق

تعنى بنشر آثار كبار كتاب سورية وسائر البلاد العربية

ظهر منها :

١ - نظرات في الزواج للدكتور شوكت موفق الشطي

٢ - من النقد الفرنسي للاستاذ محمد [illegible]



الجزء التالي : الاستاذ حافظ [illegible]